البيان

في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن

تأليف

الدكتور محمد أبو النور الحديدي

كلية أصول الدين — جامعة الأزهر

١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م

مطبعة الأمانة

٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله الذى هدانا للإيمان وما كنا لنؤمن لولا أن هدانا الله وشرح صدورنا للإسلام وما كنا لنسلم لولا أن شرح الله صدورنا له .

والصلاة والسلام على من أرسله ربه رحمة للعالمين ، وبشيراً ونذيراً للناس أجمعين ، ورضى الله عن آله وصحبه الهداة المهديين الذين كانوا يهدون بالحق وبه يعدلون ، وعمن نهج نهجهم إلى يوم الدين .

وبعد

فإنه يقع لبعض من يقرأون القرآن الكريم، أو يستمعون إليه توهم أن بين بعض آياته اختلافا وتناقضا ، والحقيقة أنه لا اختلاف ولا تناقض بين آيات الذكر الحكيم ، وعند التأمل والبحث يزول هذا التوهم ، ويتضح أن هذه الآيات متفقة غير مختلفة ، ومنسجمة فى المعنى غير متعارضة ، لأنها كلام العليم الحكيم المنزه عن الهوى والعبث ، قال تعالى « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »[1]

المعنى : أيعرضون عن القرآن ، فلا يتأملون فى معانيه الدقيقة ونظمه

---

(١) سورة النساء ٨٢

العجيب ، ولو كان من عند غير الله كما يزعمون لوجدوا تناقضا فى معانيه وتباينا فى نظمه .

تناقضا فى معانيه بأن يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع ، إذ لا علم بالأمور الغيبية لغيره تعالى ، وحيث كانت كلها مطابقة للواقع تعين كونه من عنده تعالى .

وتباينا فى نظمه ، بأن يكون بعضه فصيحا بليغا ، وبعضه ساقطا ركيكا ولما كان كله على منهاج واحد فى الفصاحة والبلاغة ثبت أنه من عند الله ، لأن هذا لا يقدر عليه إلا الله تعالى .

ولا يؤخذ من تقييد الاختلاف بالكثرة أن فى القرآن اختلافا قليلا فانه لا اختلاف فيه أصلا ، والتقييد بالكثرة للمبالغة فى إثبات الملازمة أى لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً فضلا عن القليل لكنه من عند الله فليس فيه اختلاف لا كثير ولا قليل ، وليس المراد نفى اختلاف الناس فيه ، بل نفى الاختلاف عن ذات القرآن

وللغزالى فى معنى هذه الآية كلام حاصله :

الاختلاف لفظ مشترك بين معان ، وليس المراد نفى اختلاف الناس فيه ، بل نفى الاختلاف عن ذات القرآن ، يقال : هذا كلام مختلف أى لا يشبه أوله آخره فى الفصاحة ، إذ هو مختلف ، أو بعضه يدعو إلى الدين ، وبعضه يدعو إلى الدنيا ، أو هو مختلف النظم ، فبعضه على وزن الشعر ، وبعضه منزحف ، وبعضه على أسلوب مخصوص فى الجزالة وبعضه على أسلوب يخالفه .

وكلام الله تعالى منزه عن هذه الاختلافات ، فانه على منهاج واحد

في النظم مناسب أوله آخره ، وعلى مرتبة واحدة فى غاية الفصاحة فليس يشتمل على الغث والسمين ، ومسوق لمعنى واحد ، وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى ، وصرفهم عن الدنيا إلى الدين ، وكلام الآدميين يتطرق إليه هذه الاختلافات ، إذ كلام الشعراء والمترسلين إذا قيس عليه وجد فيه اختلاف فى منهاج النظم ، ثم اختلاف فى درجات الفصاحة ، بل فى أصل الفصاحة حتى يشتمل على الغث والسمين ، فلا تتساوى رسالتان ولا قصيدتان ، بل تشتمل قصيدة على أبيات فصيحة ، وأبيات سخيفة وكذلك تشتمل القصائد والأشعار على أغراض مختلفة ، لأن الشعراء والفصحاء « فى كل واد يهيمون » فتارة يمدحون الدنيا ، وتارة يذمونها ، وتارة يمدحون الجبن فيسمونه حزما ، وتارة يذمونه ويسمونه ضعفا ، وتارة يمدحون الشجاعة ، ويسمونها صراحة ، وتارة يذمونها ويسمونها تهورا ولا ينفك كلام آدمى ، عن هذه الاختلافات ، لأن منشأ هذه الاختلافات اختلاف الأغراض ، واختلاف الأحوال ، والانسان تختلف أحواله ، فتساعده الفصاحة عند انبساط الطبع وفرحه ، وتتعذر عليه عند الانقباض ولذلك تختلف أغراضه ، فيميل إلى الشىء مرة ، ويميل عنه أخرى ، فيوجب اختلاف الأحوال والأغراض اختلافا فى كلامه بالضرورة ، فلا تصادف اللسان يتكلم فى ثلاث وعشرين سنة ، وهى مدة نزول القرآن ، فيتكلم على غرض واحد ، وعلى منهج واحد ، ولقد كان رسول الله ﷺ بشرا تختلف أحواله ، فلو كان كلامه ، أو كلام غيره من البشر لوجد فيه اختلاف كثير ، فأما اختلاف الناس فهو تباين فى آراء الناس لا فى نفس القرآن .

وكيف يكون هذا المراد وقد قال تعالى « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا »[١]

فقد ذكر فى القرآن أنه فى نفسه غير مختلف ، وهو مع هذا سبب لاختلاف الخلق فى الضلال والهدى ، فلو لم يختلف فيه لكانت أمثال هذه الآيات خلفا ، وهى أشد أنواع الاختلاف .[٢]

وقال الكرمانى عند هذه الآية :

الاختلاف على وجهين : اختلاف تناقض ، وهو ما يدعو فيه أحد الشيئين إلى خلاف الآخر ، وهذا هو الممتنع على القرآن .

واختلاف تلازم : وهو ما يوافق الجانبين ، كاختلاف وجوه القراءة واختلاف مقادير السور والآيات ، واختلاف الأحكام من الناسخ والمنسوخ والأمر والنهى ، والوعد والوعيد[٣]

ثم إن كفار قريش ، وقد جاءهم نبينا ﷺ بالإسلام وتحداهم بالقرآن كانوا حريصين أشد الحرص على الطعن فى القرآن ، والغمز فيه إبطالا لرسالة الرسول ﷺ ، وتشويها لدينه ، فلو وجدوا فيه تناقضا وبين آياته اختلافا لتعلقوا به ، وأشاعوا فى الناس قصداً إلى الظهور عليه ﷺ ، وإبطال أمره ، ولكنهم لم يفعلوا فدل ذلك على سلامته من التناقض ، وبراءته من الاختلاف فى ذاته .

قال الخطابى : سمعت ابن أبى هريرة يحكى عن أبى العباس بن سريج

---

(١) سورة البقرة ٢٦

(٢) البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشى ج ٢ ص ٤٦ — ٤٨

(٣) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ٢ ص ٣١

قوله : إعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجال وبين ظهرانى قوم ، وكانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزا ، وعليه مطعنا ، فلو كان فيه عندهم مناقضة لتعلقوا به ، وأسرعوا بالرد عليه[1] .

لا تتعارض نصوص الكتاب والسنة من كل وجه إلا فيما فيه نسخ

لا يتعارض نصان فى القرآن الكريم والسنة المطهرة من كل وجه وإذا وجد ما ظاهره التعارض فانه يتبين عند التأمل فيه والتدبر أن لأحد النصين وجها لا يتعارض مع النص الآخر .

أما أن يتعارض النصان فى القرآن الكريم أو فى السنة من كل وجه فلا إلا فيما فيه نسخ .

قال الصيرفى : جماع الاختلاف والتناقض أن كل كلام صح أن يضاف بعض ما وقع الإسم عليه إلى وجه من الوجوه فليس فيه تناقض وإنما التناقض فى اللفظ ما ضاده من كل جهة ولا يوجد فى الكتاب والسنة شىء من ذلك أبدا وإنما يوجد فيه النسخ فى وقتين .[2]

وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني :

إذا تعارض الآى وتعذر فيها الترتيب والجمع طلب التاريخ وترك المتقدم منهما بالمتأخر ويكون ذلك نسخا له ، وإن لم يوجد التاريخ وكان الإجماع على استعمال إحدى الآيتين علم باجماعهم أن الناسخ ما أجمعوا على العمل بها .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ٤٦

(٢) الاتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ٣٠

قال : ولا يوجد فى القرآن آيتان متعارضتان تعريان عن هذين الوضعين [١]

ومن أجل بيان أنه لا تعارض فى القرآن قام بعض العلماء بالتوفيق بين النصوص التى توهم بينها التعارض ومنهم فى الصدر الأول ابن عباس رضى الله عنهما .

قال عبد الرزاق فى تفسيره : أنبأنا معمر عن رجل عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال :

جاء رجل إلى ابن عباس فقال : رأيت أشياء تختلف على القرآن فقال ابن عباس : ما هو . أشك ؟ قال : ليس بشك ولكنه اختلاف قال هات ما اختلف عليك من ذلك. قال: اسمع الله يقول « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » وقال « ولا يكتمون الله حديثا » فقد كتموا وأسمعه يقول : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » ثم قال « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون »

وقال : « أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين » حتى بلغ « طائعين » ثم قال فى الآية الأخرى « أم السماء بناها » ثم قال : « والأرض بعد ذلك دحاها »

وأسمعه يقول « وكان الله » ما شأنه يقول « وكان الله » ؟

فقال ابن عباس : أما قوله « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » فانهم لما رأوا يوم القيامة وأن الله يغفر لأهل الاسلام ويغفر الذنوب ولا يغفر شركا، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره جحده

(١) البرهان جـ ٢ ص ٤٨

المشركون رجاء أن يغفر لهم فقالوا «والله ربنا ما كنا مشركين» فختم الله على أفواههم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » فعند ذلك « يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا » .

وأما قوله « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » فإنه إذا نفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون .

وأما قوله « خلق الأرض فى يومين » فان الأرض خلقت قبل السماء وكانت السماء دخانا ، فسواهن سبع سموات فى يومين بعد خلق الأرض وأما قوله «والأرض بعد ذلك دحاها» يقول : جعل فيها جبلا ، وجعل فيها نهراً وجعل فيها شجراً ، وجعل فيها بحورا .

وأما قوله « كان الله » فإن الله كان ولم يزل كذلك ، وهو كذلك عزيز حكيم عليم قدير لم يزل كذلك ، فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ماذكرت لك ، وإن الله لم ينزل شيئا إلا وقد أصاب به الذى أراد ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

أخرجه الحاكم فى المستدرك ، وصححه ، وأصله فى الصحيح [1]

---

(١) قال ابن حجر : حاصل مافيه السؤال عن أربعة مواضع : الأول نفى المسألة يوم القيامة وإثباتها ، الثانى : كتمان المشركين حالهم وإنشاؤه ، الثالث : خلق الأرض أو السماء أيها تقدم ، الرابع : الاتيان بحرف كان الدالة على المضى مع أن الصفة لازمة . ←

وذكر : أن الحسن البصرى قد وفق بين قوله تعالى « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة »(١)

وقوله « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة »(٢)

بأن قال : ليس المراد فى آية الأعراف على ظاهره من أن الوعد كان ثلاثين ليلة ، ثم بعد ذلك وعده بعشر ، لكنه وعده أربعين ليلة جميعا(٣)

وذكر الخطابى : أنه سمع ابن أبى هريرة يحكى عن أبى العباس بن سريج

وحاصل جواب ابن عباس عن الأول أن نفى المسألة فيما قبل النفخة الثانية واثباتها فيما بعد ذلك ، وعن الثانى : أنهم يكتمون بألسنتهم فتنطق أيديهم وجوارحهم وعن الثالث : أنه بدأ خلق الأرض فى يومين غير مدحوه ثم خلق السموات فسواهن فى يومين ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وجعل فيها الرواسى وغيرها فى يومين فتلك أربعة أيام للارض ، وعن الرابع بأن كان وإن كانت للماضى لكنها لا تستلزم الانقطاع ، بل المراد أنه لم يزل كذلك ، الاتقان جـ٢ ص ٢٧ .

(١) سورة البقرة الآية ٥١ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٢ .

(٣) فى التوفيق بين الآيتين قول آخر هو : أنه تجرى آية الأعراف على ظاهرها من أن الوعد كان ثلاثين ، ثم أتم بالعشر ، فاستقرت الأربعون ثم أخبر فى آية البقرة بما استقر . البرهان جـ٢ ص ٤٥ .

أنه قال : سأل رجل بعض العلماء عن قوله تعالى «لا أقسم بهذا البلد»[١] فأخبر أنه لا يقسم بهذا ، ثم أقسم به فى قوله « وهذا البلد الأمين »[٢] فقال : أيهما أحب إليك ؟ أجيبك ثم أفظعك ، أو أفظعك ثم أجيبك ؟ فقال : بل أفظعنى ، ثم أجبنى ، فقال له : إن العرب قد تدخل « لا » فى أثناء كلامها ، وتلغى معناها ، وأنشد فيه أبياتا[٣] .

وقد تناول هذا الموضوع (التوفيق بين الآيات التى يتوهم تعارضها) بالتأليف بعض العلماء على اختلاف بينهم فى كيفية التوفيق فى الآيات المتوهم تعارضها ، واتفاق فى كثير منها .

والذين ألفوا فيه . منهم من جعله نوعا من علوم القرآن نتناوله مع غيره من موضوعات علوم القرآن ، ومنهم من أفرده بالتأليف .

من هؤلاء العلماء الذين تناولوه بالتأليف : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة فى القرن الثالث الهجرى ، وله فى ذلك مؤلف أسماه : تأويل مشكل القرآن : كما أن له « تأويل مشكل الحديث » وقد طبع باسم « تأويل مختلف الحديث » ومنهم الأمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى فى القرن الثامن الهجرى وقد تناوله فى كتابه « البرهان فى علوم القرآن » ضمن موضوعات أخرى من علوم القرآن

ومنهم : شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى فى القرن

---

(١) سورة البلد الآية ١ .

(٢) سورة التين الآية ٣ .

(٣) الاتقان جـ٢ ص ٣٠

التاسع الهجرى ، وقد تناوله مع أنواع أخرى من علوم القرآن فى كتابه « الاتقان فى علوم القرآن » .

ومنهم : العالم العلامة الشيخ محمد الأمين الجكنى الشنقيطى فى مؤلفه المعروف « دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب » .

وغير هؤلاء علماء آخرون بذلوا جهدا مشكورا فى هذا المجال ، فجزى الله الجميع خيراً ، وأثابهم بقدر إخلاصهم فيه ، وحسن مقصدهم منه .

وها أنا أقوم بجهد متواضع فى هذا المجال وأعرض على القارىء الكريم ماتيسر لى من أوجه الجمع بين الآيات التى يتوهم التعارض بينها فى القرآن الكريم مراعيا فى الجمع بين الآيات ترتيب سورها بحسب النزول ، وذاكراً التوفيق بينها عند موضع الأسبق نزولا منها .

وأرجو أن يتوفر لعملى هذا من صدق النية ، وجميل الإخلاص مايعرضنى لرضا الله تعالى على ، ومايجعلنى أهلا لتقبله منى بقبول حسن ، ومثوبتى عليه ، وما يشفع لى فى أى خطأ فيه ، أو قصور غير مقصود .

وإن أكن قد وفقت فيما قصدت إليه ورجوته فذلك من الله تعالى وما التوفيق إلا من عند الله ، وإلا فما أردت إلا الخير ، وبيان الحق وأسأل ربى سبحانه العفو الكريم ، والصفح الجميل ، وأن لايحرمنى من الأجر لقاء إخلاصى فيه ، وحسن مقصدى منه ، والله سبحانه وتعالى خير مأمول وأكرم مسئول ، وهو حسبى ونعم الوكيل ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

المؤلف

الفصل الأول

الأسباب الموهمة للاختلاف

ذكر بعض العلماء [1] أموراً سببت الوهم بأن بين آيات من القرآن اختلافا وتعارضا ، وها هى أسباب الاختلاف ، وأمثلة من الآيات التى تدخل تحت كل سبب منها .

وبعضها نعيد ذكرها ، والتوفيق بينها — فيما سيأتى — بتفصيل أكثر حيث يتطلب الأمر مزيد التوضيح ، وبعضها نكتفى بالتوفيق بينها هنا — فى أسباب الاختلاف — إن لم يكن هناك حاجة إلى تفصيل لها أكثر .

أولها : وقوع المخبر به على أحوال مختلفة ، وأطوار شتى .

كخلق آدم عليه السلام الذى أخبرت الآيات أنه من طين ، ومن حمأ مسنون ، ومن طين لازب ، ومن تراب ، ومن صلصال كالفخار فى قوله تعالى « إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين »[2] وقوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون »[3]

---

(١) كالإمام بدر الدين الزركشى فى كتابه البرهان فى علوم القرآن .

(٢) سورة ص الآية ٧١ .

(٣) سورة الحجر الآية ٢٧ .

والصلصال كما قال أبو عبيدة : هو الطين المخلوط بالرمل الذى يتصلصل إذا حرك والحمأ . الطين الأسود المتغير ، أو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير والمسنون . قال الفراء : المتغير ، ومنه قوله «لم يتسنه» وقوله «غير آسن» .

وقوله « إنا خلقناهم من طين لازب »[١] وقوله « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[٢] وقوله « خلق الإنسان من صلصال كالفخار »[٣] وليس بين هذه الآيات تعارض .

فان المادة التى خلق منها آدم عليه السلام واحدة مرت بمراحل متعددة و كل آية تتحدث عن مرحلة منها .

هذه المادة : تسمى ترابا ، وذلك قبل أن يخلط بالماء ، وتسمى طينا بعد الخلط بالماء وطينا لازبا إذا صار لاصقا ، أو لازما ، وحمأ مسنونا إذا اسود وتغير ، وصلصالا إذا يبس ، فصارت له صلصلة[٤] فإذا جف أكثر شبه بالفخار الذى يطبخ فى النار .

الثانى : اختلاف الموضوع

فقد ورد فى القرآن الكريم آيات دالة على أن الناس و يُسألون يوم القيامة كقوله تعالى « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين »[٥] وقوله تعالى » فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون »[٦]

---

(١) سورة الصفات الآية ١١ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٥٩ .
(٣) سورة الرحمن الآية ١٤ .
(٤) صلصلة أى صوت إذا حرك ، أو ضرب عليه .
(٥) سورة الأعراف الآية ٦ .
(٦) سورة الحجر الآيتان ٩٢ ، ٩٣ .

وآيات أخرى دلت على عدم السؤال كقوله تعالى : ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون[١] ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان[٢] ﴾ والتوفيق بينها بواحد من ثلاثة وجوه :

الأول : أن المثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع : والمنفى هو سؤال الاستعلام .

الثانى : أن المثبت هو السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل ، والمنفى هو عن شرائع الدين وفروعه .

الثالث : اختلاف المواطن يوم القيامة ، ففى بعضها يسألون ، وفى بعضها لا يسألون .

وتوضيح ذلك سيأتى عند الكلام عن سورة الأعراف .

ومنه : مايدل على أن الله تعالى لا يكلم الكفار يوم القيامة كقوله تعالى : ﴿ ولا يكلمهم الله يوم القيامة[٣] ﴾ مع ماجاء من آيات أخرى دالة على أنه تعالى يكلمهم كقوله تعالى ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون ﴾ والسؤال كلام ، وقوله حكاية عن الكفار ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال اخسأوا فيها ولا تكلمون[٤] ﴾ .

والجواب عن هذا بواحد من اثنين

الأول : أن الكلام المنفى هو كلام التلطف والرحمة ، والمثبت هو

---

(١) سورة القصص الآية ٧٨ .

(٢) سورة الرحمن الآية ٣٩ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٤ .

(٤) سورة المؤمنون الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨ .

سؤال التوبيخ وكلام الإهانة ، ونقل الجمل عن كرخى قوله :

إن المراد من الآية أنه تعالى لا يكلمهم بتحية وسلام وخير ، وإنما يكلمهم بما تعظم به الحسرة والغم عند المناقشة والمساءلة كقوله : ﴿ اخسأوا فيها ولا تكلمون ﴾ وإنما كان عدم تكليمهم فى معرض التهديد ، لأن يوم القيامة هو اليوم الذى يكلم الله تعالى فيه كل الخلائق بلا واسطة ، فظهر عند كلامه السرور فى أوليائه ، وضده فى أعدائه[١] .

الثانى : أن الله تعالى لا يكلم الكفار يوم القيامة أصلا ، وإنما تكلمهم الملائكة بإذنه تعالى وأمره .

ومنه أيضاً :

ماجاء من الآيات دالا على أن السيئة الواحدة جزاؤها سيئة مثلها كقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها[٢] ﴾ .

مع ماجاء من الآيات دالا على أن المعصية يضاعف العذاب عليها كقوله تعالى : ﴿ يضاعف لهم العذاب[٣] ﴾ .

فيوهم ذلك التنافى ، والحقيقة أنه لاتنافى ، وأن السيئة يجزى عليها بسيئة واحدة مثلها ، وأن التضعيف فى جانب السيئة ليس على غرار التضعيف فى جانب الحسنة ، بل هو راجع لتضاعيف ما ارتكبه الكفار من السيئات والقبائح فكان لكل واحدة منها عذاب يخصه ، وتكثير العذاب راجع لكثرة ما ارتكب لا أن السيئة الواحدة يضاعف الجزاء عليها .

---

(١) تفسير الجمل جـ ١ ص ١٣٩ . (٢) سورة الشورى الآية ٤٠ .
(٣) سورة هود الآية ٢٠ .

يدل على ذلك الآيتان قبلها وهما .

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون[١] ﴾

فهؤلاء كذبوا على ربهم ، وصدوا عن سبيله ، وبغوها عوجا ، وكفروا فهذه مرتكبات عذبوا بكل واحد منها .

ومنه أيضا : ماجاء من الآيات دالا على أن الكفار يوم القيامة لا ينطقون ولا يؤذن لهم فى الاعتذار ، مع مجىء آيات غيرها تفيد أنهم ينطقون ، وينكرون أحياناً ماوقع منهم فى الدنيا ، وأحيانا يختصمون ، وأحياناً يعتذرون ولا يقبل اعتذارهم .

والتوفيق بين هذه الآيات يحتاج إلى تفصيل كثير سيأتى عند الكلام عن سورة المرسلات .

ومنه : ما أفاده قوله تعالى :

﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها[٢] ﴾ من أن كسب كل نفس عليها ، مع أن آية ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت[٣] ﴾ واضحة فى التفريق بين الكسب والاكتساب فالكسب لها والاكتساب عليها ، ومعنى الآية : لها ما كسبت من الخير أى ثوابه وعليها ما اكتسبت من الشر أى وزره .

---

(١) سورة هود الآيتان ١٨ ، ١٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

والدليل على أن الأول فى الخير والثانى فى الشر اللام فى الأول ، و « على » فى الثانى ، لأن اللام للخير ، وعلى ، للمضرة .

ولا ينقض هذا بقوله تعالى « ولهم اللعنة » وقوله « عليهم صلوات من ربهم ورحمة » لأنهما يقتضيان ذلك عند الإطلاق ، بدون ذكر الحسنة والسيئة .

أو : أنهما يستعملان لذلك عند تقارنهما كما فى هذه الآية ، وكما فى قوله : (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) .

والجواب : أن كل نفس لها ما كسبت من الخير ، وعليها ما اكتسبت من الشر كما أفاد ذلك آية البقرة ، ويكون قد ذكر فيها الأمران .

وأما آية الأنعام فالمراد بها لا تكسب شراً ولا إثماً إلا عليها بدليل سبب النزول الذى ساقه القرطبى بقوله :

روى أن الكفار قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : ارجع يا محمد إلى ديننا واعبد آلهتنا ، واترك ما أنت عليه ، ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها فى دنياك وآخرتك ، فنزلت الآية[1] .

أو : أن تكسب ضمن معنى تجنى .

ويكون قد اقتصر فى آية الأنعام على ذكر الشر فقط .

ولهذا لما ذكر القسمين فى آية البقرة ذكر ما يميز أحدهما عن الآخر. وفى آية الأنعام لما كان المراد أحدهما — وهو الشر — اقتصر عليه بـ « فعل » ولم يأت بـ « افتعل » .

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٩٢ .

ومنه مايفهم من قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ [١] من التشديد البالغ فى تقوى الله حيث أمر فيها بالتقوى التى تحق له سبحانه مع مايفيده قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم [٢] ﴾ من الأمر بتقوى الله تعالى بحسب طاقتهم ، وما بلغ إليه جهدهم وقد جمع بين الآيتين على النحو التالى :

أولا : أن آية : « اتقوا الله حق تقاته » فى خصوص التوحيد ، وآية « فاتقوا الله ما استطعتم » فى الأعمال .

قال بدر الدين الزركشى : يحكى عن الشيخ العارف أبى الحسن الشاذلى رحمه الله أنه جمع بينهما ، فحمل الآية الأولى على التوحيد ، والثانية على الأعمال والمقام يقتضى ذلك ، لأنه قال بعد الأولى « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون [٣] » .

ثانياً : أن حق التقوى المأمور به فى آية « حق تقاته » أن يطاع — سبحانه — فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر .

وقد روى هذا ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم ورواه الحاكم أيضا فى مستدركه عن ابن مسعود مرفوعا أيضا ، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

ورواه ابن أبى حاتم موقوفاً على ابن مسعود .

وقال ابن كثير : والأظهر أنه موقوف [٤] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٢ .

(٢) سورة التغابن الآية ١٦ . (٣) البرهان جـ ٢ ص ٥٧ .

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٧١ ، ٧٢ طبعة دار الشعب .

وأن آية ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ ناسخة لها ، لما شق الأمر على الصحابة .

قال القرطبي : وذكر المفسرون : أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يارسول الله من يقوى على هذا ، وشق عليهم ، فأنزل الله عز وجل : «فاتقوا الله ما استطعتم» ونسخت هذه الآية ، عن قتادة والربيع وابن زيد .

قال مقاتل : وليس في آل عمران من المنسوخ شيء إلا هذه الآية .

ثالثها : إن قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » بيان لهذه الآية « حق تقاته » والمعنى : فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم .

قال القرطبي : وهذا أصوب ، لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع ، والجمع ممكن فهو أولى ، وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : قول الله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » لم تنسخ ولكن « حق تقاته » أن يجاهد في الله حق جهاده ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم ، وتقوموا بالقسط ولو على أنفسكم وأبنائكم[1] .

ومنه أيضا : ما جاء من الآيات دالا على أن العدل بين الزوجات ممكن كقوله تعالى : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة[2] » .

مع ما أفاد أنه غير ممكن ، وهو قوله تعالى « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم[3] » .

والتوفيق بينهما بواحد من اثنين .

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٣٩٩ — ١٤٠٠ هـ طبعة دار الشعب .

(٢) سورة النساء الآية ٣ .

(٣) سورة النساء الآية ١٢٩ .

الأول : أن العدل بين الزوجات الذى ذكر الله تعالى فى الآية الأولى أنه ممكن هو العدل فى توفية الحقوق الشرعية من المطعم والكسوة والمسكن ، والمبيت وما إلى ذلك من شئون المعاش .

والعدل الذى ذكر الله تعالى فى الآية الأخرى أنه غير ممكن هو المساواة فى المحبة والميل القلبى ، فإن المحبة ، وميل القلب إلى إحدى الزوجات أكثر من غيرها لا يدخل تحت قدرة البشر .

وعلى من كان أميل بالطبع إلى إحدى الزوجات أن يتقى الله ، وأن يعدل فى الحقوق الشرعية ، كما يدل عليه قوله تعالى « فلا تميلوا كل الميل » .

قال ابن كثير فى معنى « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه ، فإنه وإن حصل القسم الصورى ليلة وليلة ، فلا بد من التفاوت فى المحبة والشهوة والجماع كما قاله ابن عباس ، وعبيدة السلمانى ومجاهد والحسن البصرى والضحاك ابن مزاحم .

وقد روى ابن أبى حاتم عن ابن أبى مليكة قال : نزلت هذه الآية « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » فى عائشة يعنى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحبها أكثر من غيرها ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يعنى القلب[1] .

(١) تفسير ابن كثير حـ ٢ ص ٣٨٢ طبعة دار الشعب .

الثانى : أن المراد بالعدل فى الآية الثانية العدل التام .

وعلى هذا فالآيتان فى العدل بين فى توفية حقوقهن الشرعية . وتفيد الآية الثانية أن العدل التام غير ممكن ، إذ يحصل انتقاص ولو يسير لبعض الزوجات من هذه الحقوق .

قال النسفى : ولن تستطيعوا العدل بين النساء والتسوية حتى لا يقع ميل البتة فتمام العدل أن يسوى بينهن فى القسمة ، والنفقة ، والتعهد والنظر والإقبال والمجالة والمفاكهة وغيرها[1] .

« فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » .

أى : فلا تميلوا كل الميل إلى التى تحبونها فى القسم والنفقة ، فتتركوا المرغوب عنها كالمعلقة التى لا هى مطلقة ، ولا هى ذات زوج .

« وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما » .

أى : وإن تصلحوا بالعدل فى القسم ، وتتقوا الجور فإن الله كان غفوراً لما فى قلبكم من الميل رحيما بكم فى ذلك فلا يعاقبكم .

ومنه أيضاً التفاوت فى الأمر بين آية « إن الله لا يأمر بالفحشاء » وآية « أمرنا مترفيها ففسقوا فيها » فالأمر فى الآية الثانية بالطاعة .

أو : أنه الأمر القدرى لا الشرعى ، وتفصيل ذلك سيأتى فى الكلام عن سورة الأعراف .

كذلك لا تنافى بين تفضيل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة فى قوله تعالى « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم

(١) تفسير النسفى جـ ١ ص ٢٥٤ .

وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى » .

وبين تفضيل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما الذى هو درجات ومغفرة ورحمة فى قوله تعالى « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما[1] » . لأن القاعدين فى الأول هم القاعدون من أولى الضرر والقاعدون فى الموضع الثانى هم القاعدون من الأصحاء الذين لا عذر لهم .

فالتقدير فى الأول : وفضل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر درجة ، والتقدير فى الثانى : وفضل الله المجاهدين على القاعدين من الأصحاء درجات .

الثالث : الاختلاف فى جهتى الفعل :

كما فى قوله تعالى : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى[2] » .

فإنه قد يرد على الذهن سؤال هو : كيف نفى عن المسلمين قتل الكفار مع أنهم قتلوهم يوم بدر ، ونفى عن النبى صلى الله عليه وسلم رميهم مع إثبات أنه رماهم يوم بدر بالحصى فى وجوههم .

---

(١) سورة النساء الآيتان ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) سورة الأنفال الآية ١٧ .

ذكر الجمل : أن هذه الآية نزلت لما افتخر المسلمون بعد رجوعهم من بدر فرحاً فكان الواحد منهم يقول : أنا قتلت كذا ، أنا أسرت كذا فعلمهم الله الأدب بقوله « فلم تقتلوهم » . تفسير الجمل جـ ٢ ص ٢٣٤ .

والجـــواب :

أن نفى القتل عن المسلمين ، ونفى الرمى عن النبى صلى الله عليه وسلم باعتبار الإيجاد إذ الموجد له حقيقة هو الله تعالى .

وإثبات القتل للمسلمين ، والرمى للنبى صلى الله عليه وسلم باعتبار الكسب والصورة وقيل : فى الجواب أيضاً : إن معنى « فلم تقتلوهم » فلم تزهقوا أرواحهم « ولـكن الله قتلهم » أزهق أرواحهم ، فلا تنافى ، حيث حصل من المسلمين الضرب لا القتل الذى هو إزهاق الأرواح ، ومن الله تعالى القتل أى إزهاق أرواحهم .

والرمى المنفى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، بمعنى عدم إيصال النبى الحصى لأعينهم ، والمثبت له صلى الله عليه وسلم ، هو فعل الرمى .

قال بدر الدين الزركشى : فى قوله تعالى « فلم تقتلوهم ولـكن الله قتلهم » : أضيف القتل إليهم على جهة الكسب والمباشرة ، ونفاه عنهم باعتبار التأثير .

ولهذا قال الجمهور : إن الأفعال مخلوقة لله تعالى ، مكتسبة للآدميين فنفى الفعل بإحدى الجهتين لا يعارضه إثباته بالجهة الأخرى .

وفى قوله تعالى « وما رميت إذ رميت ولـكن الله رمى » ما رميت خلقا إذ رميت كسبا .

وقيل : إن الرمى يشتمل على القبض والإرسال ، وهما بكسب الرامى ، وعلى التبليغ والإصابة ، وهما بفعل الله عز وجل .

ونقل عن ابن جرير قوله : وهى الدليل على أن الله تعالى خالق لأفعال العباد ، فإن الله تعالى أضافه إلى نبيه ثم نفاه عنه ، وذلك فعل

واحد ، لأنه من الله تعالى التوصيل إليهم ، ومن نبيه بالحذف والإرسال ، وإذا ثبت هذا لزم مثله في سائر أفعال العباد المكتسبة ، فمن الله تعالى الإنشاء والإيجاد ومن الخلق الاكتساب بالقوى[١] .

السبب الرابع : الاختلاف بالحقيقة والمجاز

كقوله تعالى « وترى الناس سكارى وماهم بسكارى[٢] » .

أى : يراهم الرائى كأنهم سكارى ، فسكارى الأولى مجاز ، حيث شبه الناس وقت زلزلة الساعة بالسكارى ، وقد شابهوا السكارى من شدة العذاب وعظيم الهول الذى طاشت به عقولهم ، واضطربت أفهامهم فصاروا كالسكارى بجامع سلب كمال التمييز ، وصحة الإدراك .

« وماهم بسكارى » حقيقة حيث لم يشربوا الخمر التى يصير بها الإنسان سكرانا فالسكر الحقيقى ينجم عن شرب المسكر الذى يطير بعقل الشارب ، ويذهب بتمييزه وقول الله تعالى « وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون[٣] » .

قد فسر بتفسيرين : الأول وإن تدعوا أيها المشركون أصنامكم إلى أن يهدوكم لا يسمعوا دعاءكم ، وترى الأصنام رأى العين يشبهون الناظرين إليك ويخيل إليك أنهم يبصرونك ، لما أنهم صنعوا لها أعينا مركبة بالجواهر المضيئة المتلألئة ، وصورها بصورة من قلب حدقتيه إلى الشيء ينظر إليه ، والحال أنهم غير قادرين على الإبصار ، فالأصنام تنظر مجازا ولا تبصر حقيقة .

---

(١) البرهان ٢/٥٩ ، ٦٠ (٢) سورة الحج الآية ٢

(٣) سورة الأعراف الآية ١٩٨

والتفسير الثانى للاية :

وإن تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الإسلام واتباع الحق لا يسمعوا أى لا يقبلون ذلك بقلوبهم فلا يجيبوكم .

وتراهم يامحمد ينظرون إليك بأعينهم ولا يبصرونك بقلوبهم حيث أنهم لا يدركون شواهد النبوة ودلائل الرسالة .

فنظر المشركين إلى النبى صلى الله عليه وسلم بالأعين ، وعدم إبصارهم إياه بالقلوب ، فالنظر باعتبار ، وعدم الإبصار باعتبار آخر .

السبب الخامس للاختلاف أن يكون بوجهين واعتبارين :

وهو الجامع للمفترقات كقوله تعالى « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد[1] » .

مع قوله تعالى « وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى[2] » فالآية الأولى تخبر عن بصر الإنسان يوم القيامة بأنه حديد ، والبصر فيها بصر القلب الذى هو العلم والمعرفة ، والاستيقان باليوم الآخر ومافيه .

والآية الأخرى تتحدث عن نظر الكفار إلى النار والعذاب فيها مسارقة ، فهو بصر بالعين فلا تنافى ، وسيأتى زيادة توضيح لذلك عند الكلام عن سورة ق .

وقوله تعالى : « وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك[3] » .

---

(١) سورة ق الآية ٢٢

(٢) سورة الشورى الآية ٤٥ (٣) الأعراف ١٢٧

مع قوله تعالى حكاية عن فرعون : « أنا ربكم الأعلى[١] » .

يجمع بينهما بأن : الآلهة المنسوبة إلى فرعون - فى الآية الأولى — هى أصنام صنعها فرعون ، وأمر قومه بعبادتها تقرباً إليه ، وادعاؤه أنه الرب الأعلى — كما أخبر بذلك فى الآية الأخرى -- بمعنى أنه الذى فوق هذه الآلهة فلا تعارض ، وسيأتى بسط ذلك فى الكلام عن سورة الأعراف .

وقال تعالى « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم[٢] » والوجل : استشعار الخوف ، وحصول الاضطراب ، وهو ضد الطمأنينة التى بينت آية أخرى حصولها للمؤمنين بذكر الله تعالى وهى قوله تعالى « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب[٣] » أى تسكن قلوبهم عن القلق والاضطراب بذكر الله .

والتوفيق بينهما بواحد من هذه الوجوه :

١ — أن الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب ، والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب .

ذكر الكرخى : أنهم إذا ذكروا العقوبات ، ولم يأمنوا أن يتوبوا عن المعاصى فهناك الوجل ، وإذا ذكروا ما وعد الله به من الثواب والرحمة سكنت قلوبهم .

---

(١) النازعات ٢٤

(٢) الأنفال ٢

(٣) الرعد ٢٨

٢ — أن المراد أن علمهم بكون القرآن معجزاً يوجب حصول الطمأنينة لهم فى كون محمد صلى الله عليه وسلم نبياً حقاً من عند الله ، وأن شكهم فى أنهم أتوا بالطاعات كاملة يوجب حصول الوجل فى قلوبهم[١] .

٣ — أن الوجل الذى هو القلق والاضطراب إنما يكون من خشيته سبحانه وأن طمأنينة القلوب تكون بذكر رحمته ومغفرته :

أو بذكره تعالى أنساً به وتبتلا إليه[٢] .

وعبارة الشهاب : « وتطمئن قلوبهم بذكر الله » أى لا تضطرب لمكاره لأنسها بالله تعالى واعتمادها عليه .

أو : بذكر دلائله الدالة على وحدانيته .

قال بدر الدين الزركشى : إن الطمأنينة إنما تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد .

والوجل : يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى ، فتوجل القلوب لذلك ، وقد جمع بينهما فى قوله « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله[٣] » .

وقوله تعالى فى سورة السجدة « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون[٤] » .

---

(١) تفسير الجمل على الجلالين ٢/٥٠٤

(٢) تفسير أبو السعود ٣/١٠٨ ، ١٠٩

(٣) البرهان ٢/٦٢ ، والآية من سورة الزمر رقم ٢٣

(٤) السجدة ٥

يدل على أن مقدار اليوم عند الله تعالى ألف سنة .

كالآية الكريمة من سورة الحج « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون[١] » .

وهذا يتنافى مع ما يفيد أن مقداره خمسون ألف سنة وهو قوله تعالى فى سورة المعارج « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة[٢] » والجمع بينهما من وجهين .

الأول : أن يوم الألف فى سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى ويوم الألف فى سورة الحج هو أحد الأيام الستة التى خلق الله تعالى فيها السموات والأرض ، ويوم الخمسين ألفا هو يوم القيامة .

الثانى : أن المراد بجميعها يوم القيامة ، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر ويدل لهذا[٣] قوله تعالى « فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير[٤] » .

وقد يتوهم التعارض بين الآيات التى يفيد بعضها أن الذى يتوفى العباد ملك واحد هو ملك الموت كقوله تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون[٥] » .

ويفيد بعضها أن متوفى العباد جمع من الملائكة كقوله تعالى

---

(١) الحج ٤٧ (٢) المعارج ٤

(٣) المدثر ٩ ، ١٠ (٤) الاتقان ٢/٢٨ ، ٢٩

(٥) السجدة ١١

« ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون[١] » .

وقوله تعالى « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم[٢] » .

وقوله تعالى « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم[٣] » .

وقوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم[٤] » .

ويفيد بعض أخر منها أن متوفى العباد هو الله عز وجل .

قال تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها[٥] » .

ويزول هذا التوهم بالجمع بينها على النحو التالى :

أن إسناد التوفى لملك الموت باعتبار أنه المأمور بقبض الأرواح من الله تعالى وهو الذى يأمر أعوانه بقبضها

وإسناده إلى الملائكة باعتبارهم أعوان ملك الموت الذين يأمرهم بقبض الأرواح ويباشرون قبضها ونزعها إلى الحلقوم ، فيأخذها ملك الموت .

وإسناد ذلك إلى الله تعالى ، لأنه خالق الموت فى الإنسان ، وهو الذى يأمر ملك الموت بقبض الأرواح ، ولا يقدر ملك الموت أن يقبض روح أحد إلا بإذن الله تعالى ومشيئته قال تعالى « وما كان

---

(١) الأنعام ٦١ (٢) النحل ٢٨
(٣) الأنفال ٥٠ (٤) الأنعام ٩٣
(٥) الزمر ٤٢

لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا[1] » وخلاصة ذلك كما ذكر البغوى :

أن توفى الملائكة بالقبض والنزع ، وتوفى ملك الموت بالدعاء والأمر ، يدعو الأرواح فتجيبه ، ثم يأمر أعوانه بقبضها ، وتوفى الله سبحانه خلق الموت فيه[2] .

---

(١) آل عمران ١٤٥ (٢) البرهان ٢/٦٢

الفصل الثانى

فى التوفيق بين الآيات

مراعى فيه ترتيب السور بحسب النزول

سورة العلق :

الخاطىء غير المخطىء

فى سورة العلق آيات تتحدث عن قبح ما صنع أبو جهل مع النبى صلى الله عليه وسلم فقد كان ينهاه عن الصلاة ، فهدده الله تعالى وتوعده إن لم ينته عما هو عليه بالأخذ بناصيته وجره إلى النار .

ثم وصف الله تعالى ناصيته بأنها كاذبة خاطئة ، والمراد : أن صاحبها كاذب خاطىء .

قال تعالى : « أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى . أرأيت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى . أرأيت إن كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى . كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة[1] » .

ففى هذه الآيات ذم الخاطىء وتهديده .

وفى غيرها رفع الحرج عن المخطىء .

ففى سورة الأحزاب أمر الله تعالى المؤمنين أن يدعوا الأبناء لآبائهم للصلب وينسبوهم إليهم ، ولا يدعوهم إلى غيرهم ، فإن وقع من

---

(١) العلق ٩ — ١٦

أحدهم نسبة ابن إلى غير أبيه - مع العلم بذلك — على سبيل الخطأ من غير تعمد ، فلا إثم فيه ، وإنما الإثم فيما كان عمداً قال تعالى :

« أدعوهم لآبائهم هـــو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما[1] » ولا تعارض بين ما فى العلق « ناصية كاذبه خاطئة » وبين ما فى الأحزاب « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به » ، لأن الخاطىء فى الآية الأولى ، هو فاعل الخطيئة — الذنب — عمدا ، كما قال تعالى « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً[2] » ، أو فاعل الخطء — بكسر الخاء — وهو الذنب عمداً كما قال تعالى « إن قتلهم كان خطأ كبيراً[3] » .

وأما المخطىء — فى آية الاحزاب — فهو من صدر منه الفعل من غير تعمد ، فهو معذور ولا إثم عليه ، فلا تعارض بين الآيتين .

---

(١) الأحزاب ٥ (٢) نوح ٢٥

(٣) الإسراء ٣١

سورة القلم :

الرسول لا يطلب على تبليغ الرسالة أجراً

ينفى الله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم أنه يطلب أجراً على تبليغ الرسالة والوحى ، وبذا لا يكون قد أثقل عليهم بهذا الأجر إثقالا ، امتنعوا بسببه عن الإيمان واتباعه قال تعالى :

« أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون[١] » .

فان « أم » استفهامية ، والاستفهام فيها بمعنى النفى ، أى لست تطلب أجرا على تبليغ الرسالة ، وجاءت هذه الآية أيضاً بلفظها فى سورة الطور[٢] .

وفى سورة « ص » أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس إنه لا يسألهم على تبليغ القرآن والوحى أجرا فى قوله : « قل ما اسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين[٣] » .

وفى سورة سبأ قوله تعالى « قل ماسألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد[٤] » .

والرسل جميعا — عليهم صلوات الله وتسليماته — لم يطلب واحد منهم على التبليغ أجرا فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه — فى سورة هود — « وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله

---

(١) القلم ٤٦ (٢) الطور ٤٠

(٣) ص ٨٦ (٤) سبأ ٤٧

وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولـكنى أراكم قوما تجهلون[١] » .

وهذا هود عليه السلام يقول لقومه — فى نفس السورة — ياقوم لا أسألـكم عليه أجـــراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون[٢] » .

وفى سورة الشعراء يقول كل من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام جميعا « وما أسألـكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين[٣] » .

وجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يطلبوا أجرا من أقوامهم على تبليغ رسالات الله إليهم .

وقد جاء ماتوهم منه البعض خلاف ذلك من قوله تعالى :

« قل ما أسألـكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا[٤] » فقد يفهم منها أن فعل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا هو أجر للرسول صلى الله عليه وسلم على التبليغ .

والحقيقة : أن ذلك ليس أجرا للرسول عليه الصلاة والسلام من قومه ، وإنما صور بصورة الأجر ، فاتخاذ السبيل إلى الله تعالى — الذى هو على الأصح تقربهم إليه بالإيمان والطاعة يعد بمنزلة الأجر له ، أما أنه أجر حقيقى له عليه السلام فلا .

---

(١) هود ٢٩ (٢) هود ٥١

(٣) الشعراء ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠ (٤) الفرقان ٥٧

وبعض العلماء فسر اتخاذ السبيل إلى الله تعالى ، بأنه الإنفاق من المال ، والتصدق منه وعبارة زاده : وعلى تقدير كون الاستثناء منقطعا يكون المعنى : لا أطلب من أموالكم جعلا لنفسى لكن من شاء إنفاقها لوجه الله فليفعل[1] .

وقوله تعالى أيضاً « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى[2] » .

لا ينبغى أن يفهم منه ، أن المودة فى القربى أجر له عليه الصلاة والسلام على التبليغ .

وقد ذكر العلماء فى معناها أقوالا يبعد كل قول منها أن المودة فى القربى أجر للرسول صلى الله عليه وسلم نكتفى منها بما يأتى :

الأول : أن معنى الآية : قل لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودونى فى قرابتى التى بينى وبينكم ، فتكفوا أذاكم عنى ، وتمنعونى من أذى الناس ، كما تمنعون كل من كان بينكم وبينه مثل قرابتى منكم .

وكان له صلى الله عليه وسلم فى كل بطون قريش قرابة ، فاذا سألهم مودته والانتصار له من أذى الناس لم يكن ذلك أجرا على التبليغ فى الحقيقة ، إذ هو مطلوب من القريب لقريبه ، حيث إن كل إنسان يوده أهل قرابته ، ويكفون عنه أذى الآخرين .

وقد انتصر للنبى صلى الله عليه وسلم ، ودافع عنه عمه أبو طالب

---

(١) تفسير الجمل ٣/٢٦٤ (٢) الشورى ٢٣

وهو كافر — ولم يكن ذلك أجرا له على التبليغ ، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسأل أجرا إلا هذا الذى ليس بأجر . تحقق أنه لا يسأل أجرا .

الثانى : أن معنى : « إلا المودة فى القربى » إلا كف الأذى عن قرابتى وأهل بيتى ، وحفظى فيهم ، وهذا ليس أجرا ، لأن المودة بين المسلمين واجبة وأحق بها قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والاستثناء متصل على كلا المعنيين وقال بعض العلماء . الاستثناء منقطع على كلا القولين : وعليه فلا إشكال .

إذ المعنى على الأول : لا أسألكم عليه أجرا ، لكن أذكركم قرابتى فيكم .

وعلى الثانى : لكن أذكركم الله فى قرابتى ، فاحفظونى فيهم .

وفى معنى الآية أقوال أخرى لا يقع بها التعارض ، ولكنها ضعيفة . منها :

الثالث : « إلا المودة فى القربى » إلا أن تتوددوا إلى الله تعالى وتتقربوا إليه بالطاعة والعمل الصالح ، والتقرب إلى الله تعالى ليس أجرا على التبليغ .

الرابع : « إلا المودة فى القربى » إلا أن تتوددوا إلى قراباتكم ، وتصلوا أرحامكم ، وصلة الإنسان رحمه ليست أجرا على التبليغ .

وأشد ضعفا من ذلك القول بأن « إلا المودة فى القربى » منسوخة بقوله تعالى « قل ماسألتكم من أجر فهو لكم » .

سورة القلم

نبذ يونس بالعراء غير مذموم

قال الله تعالى « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم »[1]

وفيه : يأمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يصبر على أذى قومه وأن يمضى لما أمره به من تبليغ رسالته ، وينهاه أن يكون كيونس ابن متى عليه السلام فى الضجر والعجلة .

فإنه لما غضب على قومه ـ لما لم يؤمنوا ـ تركهم وركب سفينة مملوءة ، فهاجت الريح ، واضطربت السفينة ، وخشى راكبوها الغرق فأجروا قرعة ، ليلقوا بها من تقع عليه ـ فى البحر ، تخفيفا عن السفينة ، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام ، وألقى به فى البحر ، والتقمه الحوت ، ثم نادى ربه فى بطن الحوت ، وهو مملوء غيظاً وغما بقوله « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين »[2] فاستجاب الله له ونجاه من الغم ، وأمر الحوت أن يطرحه بالعراء وهو الفضاء الواسع الخالى من الأشجار والجبال .

ولولا أن تداركته رحمة ربه لنبذ بالعراء وهو ملام على ماوقع منه فقد يتوهم من هذه الآية أن يونس عليه السلام لم ينبذ بالعراء .

---

(١) القلم ٤٨ ، ٤٩ (١) الأنبياء ٨٧

وهذا يتعارض مع قوله تعالى فى سورة الصفات « فنبذناه بالعراء وهو سقيم »[١] التى صرحت بنبذ يونس عليه السلام بالعراء .

والجـــــواب :

أن الامتناع الذى أفاده حرف « لولا » منصب على الجملة الحالية « هو مذموم » لاعلى جواب لولا وهو « لنبذ بالعراء »

والمعنى : لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء فى حال كونه مذموماً لـكن تداركته نعمة ربه فنبذ بالعراء غير مذموم ، فصحة المعنى متوقفة على الحال كما فى قوله تعالى « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين »[٢] وقوله تعالى « وماخلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا »[٣] إذ النفى فيهما منصب على الحال لا على ماقبله

---

(١) الصافات ١٤٥

(٢) الدخان ٣٨

(٣) ص ٢٧

سورة المزمل :

أحوال الجبال يوم القيامة

تحدثت آيات متعددة فى القرآن الكريم عما تكون عليه الجبال يوم القيامة من أحوال مختلفة ، فهل بين هذه الآيات تناف أو لا ؟

نستعرضها أولا ، ثم نبين أنه لاتنافى بينها .

قال تعالى ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾ (١)

ومعنى « ترجف » تتحرك وتضطرب بمن عليها وما عليها ، والكثيب الرمل المجتمع والمهيل : السائل الذى يمر تحت الأرجل ، وإذا أخذ أسفله انهال ففى يوم القيامة تضطرب الأرض ، وتتحرك بما فوقها ، وتضطرب الجبال كذلك فتصير رملا سائلا .

وأخبرت الآية ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ (٢) من سورة القارعة : أن الجبال تكون يوم القيامة كالعهن المنفوش ، أى كالصوف الملون بالألوان المختلفة الذى نفش بالندف ولما سئل نبينا صلى الله عليه وسلم عن حال الجبال يوم القيامة أجابت الآيات من سورة طه عن ذلك ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا * فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾ (٣) .

---

(١) المزمل ١٤ (٢) القارعة ٥

(٣) طه الآيات ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧

بأن الله ينسفها نسفا ؛ أى يقلعها قلعا من أصولها ، ثم يصيرها رملا سائلا ويترك موضعها - بعد نسف ما كان عليها من الجبال - أرضا ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء ، ولا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً .

وتخبر الآيات من سورة الواقعة أن الجبال - بعد أن تبس - أى تفتت - تصير غبارا متفرقا منتشرا « وبست الجبال بسا * فكانت هباء منبسا »(١)

وفى سورة النمل أن الجبال - بعد أن تقتلع من أماكنها تسير فى الفضاء سيرا سريعاً قال تعالى « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب »(٢)

أى يظنها الرائى : واقفة ثابتة بينما هى تسير سيرا سريعاً كالسحاب

وفى سورة الكهف «ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة (٣)»

وفى سورة الطور « يوم تمور السماء موراً . وتسير الجبال سيرا»(٤)

وفى سورة النبأ : أن الجبال تكون كالسراب « وسيرت الجبال فكانت سرابا» (٥) أى قلعت عن مواضعها ، وسيرت عن أماكنها فى الهواء فكانت هباء منبثا فيظنها الناظر سرابا فالجبال صارت كلا شىء كما أن السراب يراه الرائى ماء وليس بماء .

---

(١) الواقعة ٥ - ٦ (٢) النمل ٨٨ (٣) الكهف ٤٧

(٤) الطور ٩ ، ١٠ (٥) النبأ ٢٠

وخلاصة القول :

أن الايات التى تحدثت عن أحوال الجبال يوم القيامة، قد تحدثت كل آية عن مرحلة وحالة من المراحل والأحوال المختلفة المتعددة للجبال فلا تعارض بينها .

١ — فمنها ماتحدث عن دكها وتفتتها وصيرورتها رملا سائلا .

٢ — ومنها ماتحدث عن صيرورتها بعد ذلك كالعهن المنفوش .

٣ — ومنها ماتحدث عن حالة ثالثة لها عندما تكون هباء منبثا .

٤ — ومنها ماتحدث عن سيرها كالسحاب تسوقها الرياح .

٥ — ومنها ماتحدث عن صيرورتها سرابا أى لاشىء .

سورة التكوير :

القرآن كلام الله بلغة جبريل

أقسم تعالى بالكواكب وبالليل ، وبالصبح على أن القرآن قول رسول كريم هو جبريل عليه السلام ، وعلى أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس بمجنون قال تعالى ﴿ فلا أقسم بالخنس · الجوار الكنس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين . وماصاحبكم بمجنون ﴾[1]

والمعنى : أقسم قسما مؤكدا بالكواكب المضيئة التى تختفى عن الأنظار بالنهار ، وتظهر بالليل ، والتى تجرى وتسير ، ثم تستتر وقت غروبها ، كما تستتر الظباء فى مغاراتها وبالليل إذا أقبل بظلامه حتى غطى الكون ، أو أدبر ، وبالصبح إذا أضاء وتباج واتسع ضياؤه ، حتى صار نهارا واضحا. إن هذا القرآن الكريم لقول رسول كريم هو جبريل عليه السلام ـ على الأصح ـ ذى القوة الشديدة ، والمكانة الرفيعة عند الله عز وجل ، المطاع هناك فى الملأ الأعلى ، تطيعه الملائكة الأبرار المؤتمن على الوحى الذى ينزل به على الأنبياء ، وليس محمد الذى صاحبتموه يا أهل مكة ، وعرفتم صدقه ، ورجاحة عقله بمجنون كما زعمتم [2] .

---

(١) التكوير من ١٥ - ٢٢

(٢) فتح القدير جـ٥ ص ٣٩٠ - ٣٩١

وقد صرحت آيات أخرى بأن القرآن كلام الله منها قوله تعالى « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه »[١] .

والمعنى : إن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لاعهد بينك وبينه واستأمنك ليسمع ماتدعو إليه من التوحيد والقرآن، فأمنه حتى يسمع كلام الله ، ويتدبره ، ويطلع على حقيقة الأمر[٢]

وفى هذا إتاحة الفرصة للكفار لمعرفة الحق واتباع الهدى ، وترك ماهم عليه من الضلال ثم إن لم يسلم فأوصله إلى ديار قومه التى يأمن فيها على نفسه وماله .

ولا تعارض بين الآيتين : فان القرآن كلام الله على الحقيقة ، أنزله بواسطة جبريل « نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين »[٣] وأضيف القرآن إليه لأنه الذى جاء به وقول « رسول » يدل على أن الكلام لغيره ، أرسل بتبليغه ، فجبريل رسول أى مبلغ له عمن أرسله وهو الله .

---

(١) التوبة ٦ (٢) تفسير الكشاف جـ٤ ص ٤٢٨

(٣) الشعراء ١٩٤ - ١٩٥

سورة الأعلى :

القرآن محفوظ من الضياع

أخبر الله تعالى أن النبي صلى الله عليه وسلم ينسى من القرآن ماشاء الله أن ينساه فى قوله تعالى فى سورة الأعلى «سنقرئك فلا تنسى . إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر ومايخفى »[١] والذى ينسى يضيع .

مع أنه قد بينت آيات أخرى أن القرآن الكريم محفوظ من الضياع قال تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[٢]

وقال تعالى « لاتحرك به لسانك لتعجل به . إنا علينا جمعه وقرآنه »[٣] أى : إن علينا أن نجمعه فى صدرك ، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئا وقد كان صلى الله عليه وسلم يقرأ مع جبريل أثناء تلقى الوحى منه ، من شدة حرصه على حفظ القرآن ، مخافة أن ينسى منه شيئاً ، فنهاه الله تعالى عن ذلك وطمأنه بأنه سيجمع القرآن فى صدره فلا ينسى منه شيئاً .

ولا تعارض بين الآيات :

فالقرآن قد تكفل رب العالمين بحفظه ، فلا يضيع منه شيء كما ذكرت آية الحجر وآية القيامة .

---

(١) الأعلى ٦ - ٧ (٢) الحجر ٩
(٣) القيامة ١٦ - ١٧

وقوله تعالى « فلا تنسى » يحتمل أن يكون خبرا ، فعلى أنه نهى يكون المعنى : فلا تغفل قراءته وتكراره حتى لا تنساه(٤) .

وعلى هذا فلا تعارض

وعلى أنه خبر تكون الآية بشارة من الله ووعداً منه سبحانه للنبى صلى الله عليه وسلم بأنه سيقوى حفظه للقرآن حتى لا ينساه ، والأصح أن الآية من قبيل الخبر لأنه يلزم على كونها نهيا ارتكاب مجاز فى النسيان ، بحمله على ترك القراءة والغفلة عنها ، والحمل على الحقيقة أولى من المجاز .

ولأن جعل الألف مزيدة للفاصلة خلاف الأصل

ولأن فى كونها خبراً تأييداً لرسول الله ﷺ ، وكل مايدل على إعجاز القرآن ، وصدق الرسول ﷺ أولى .

والاستثناء فى قوله « فلا تنسى . إلا ماشاء الله » اختلف فيه أهو على حقيقته أم لا ؟

قال البعض : إنه على حقيقته ، ومعنى الآية : سنقوئك القرآن فلا تنسى شيئا منه ، إلا ما شاء الله فتنساه ، ويرفع حكمه وتلاوته ، فالمستثنى هو ما نسخه الله من القرآن فيرفع حكمه وتلاوته .

أو : أن النسيان الذى أفاده الاستثناء هو الذى يعقبه التذكر ، لا النسيان التام الذى هو محو الشىء من الذهن بالكلية ، لأن النسيان

---

(٤) وأثبتت الألف فى « فلا تنسى » مع أنه مجزوم بلا الناهية رعاية لفواصل الآى

التام يخل بموجب التبليغ عن الله تعالى ، ويزعزع الثقة فى القرآن الكريم

ومعنى الآية : سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله أن تنساه ثم يذكرك به بعد إما بنفسك ، وإما بغيرك

وقال آخرون : الاستثناء ليس على حقيقته

ومنهم الفراء : الذى قال : إن هذا استثناء صلة فى الكلام على سنة الله تعالى فى الاستثناء ، وليس ثم شىء أبيح استثناؤه

والزمخشري أيضا . الذى ذكر أن الغرض نفى النسيان رأسا ، ولا يقصد استثناء شىء[1] والاستثناء على هذا لبيان أن الله تعالى لو أراد أن يصير نبيه صلى الله عليه وسلم ناسياً لذلك لقدر عليه ، كما قال سبحانه « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك »[2] والله تعالى لم يشأ ذلك .

فعدم النسيان إنما هو من الله تعالى وإحسانه لا من قدرة رسول الله ﷺ وقد قوى هذا القول أصحابه بما قيل فى قول الله تعالى فى أهل الجنة « خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ »[3] .

---

(١) الكشاف جـ٤ ص٥٩٠

(٢) الاسراء ٨٦

(٣) هود ١٠٨

من أن الاستثناء ليس على حقيقته ، وإنما المقصود أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرا واجبا بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى .

وقد ضعف هذا القول بعض المفسرين كأبى حيان الذى قال : وقول الفراء والزمخشرى يجعل الاستثناء كلا استثناء ، وهذا لا ينبغى أن أن يكون فى كلام الله تعالى بل ولا فى كلام فصيح[1] .

وأرجح أن الاستثناء على حقيقته ، وأن النسيان الذى أفاده الاستثناء هو الذى يعقبه التذكر لا النسيان التام لأمور :

الأول : أن الأصل إبقاء الأشياء على حقيقتها ، وحيث يمكن هنا الاستثناء على حقيقته مع عدم الإخلال بالقاعدة المقطوع بها وهى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى مجال التبليغ عن الله تعالى فلا داعى للخروج به عن حقيقته .

الثانى : أن النسيان الذى يعقبه التذكر لا ضير فيه ، ولا يخل بمهمة التبليغ ولا يزعزع الثقة بالنبى ولا بالقرآن ، ولوقوعه من النبى صلى الله عليه وسلم فائدة هى أن يسن لنا .

روى مالك فى الموطأ أن رسول الله صلى الله عليه قال : «إنى لأنسى أو أُنسى لأسن[2]» .

الثالث : أن هذا القول تؤيده أحاديث متعددة منها :

---

(١) البحر المحيط ٧ / ٤٥٩ .

(٢) موطأ مالك ١ / ٩٢ .

ماروواه البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : «سمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلا يقرأ فى المسجد فقال : يرحمه الله لقد أذكرنى كذا وكذا آية من سورة كذا » وما رواه البخارى ومسلم أن نبينا ﷺ قال : « إنما أنا بشر أنسى كما تنسون » .

ويذكر ابن حجر : أن فى قول الرسول ﷺ حجة لمن أجاز النسيان على النبى ﷺ فيما ليس طريقه البلاغ مطلقاً ، وكذا فيما طريقه البلاغ لكن بشرطين :

أحدهما : أنه بعد مايقع منه تبليغه ، والآخر : أنه لا يستمر على نسيانه بل يحصل له تذكره إما بنفسه ، وإما بغيره ، وهل يشترط فى هذا الفور ؟ قولان ، فأما ما قبل تبليغه فلا يجوز عليه فيه النسيان أصلا[1] .

وعلى هذا ، فليس فى الآية ما يدل على أن النبى ﷺ نسى آيات من القرآن الكريم نسياناً تاماً يقدح فى عصمته فى التبليغ ، ويتعارض مع قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ الذى يفيد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم .

---

(١) فتح البارى ٩ / ٧٥ ، ٧٦ .

سورة الأعلى :

التذكير ومتى يكون

يفهم من الآية الكريمة فى سورة الأعلى ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ﴾[١]

أن التذكير لا يطلب إلا عند مظنة نفعه ، كما يفيد ذلك « إن » الشرطية .

وتفيد آيات أخرى مثل قوله تعالى فى سورة الغاشية ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ﴾[٢]

وجوب التذكير مطلقا نفع ، أو لم ينفع .

وللعلماء فى التوفيق بينهما أقوال :

الأول : أن التذكير مقيد بمظنة النفع ، كما تفيده آية الأعلى ، والآيات الآمرة بالتذكير مطلقا كآية الغاشية تحمل على المقيدة ، وإلى هذا ذهب ابن كثير الذى قال:

ذكر حيث تنفع التذكرة ، ومن هنا يؤخذ الأدب فى نشر العلم ، فلا يضعه عند غير أهله ، كما قال على رضى الله عنه : ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم .

وقال أيضا : حدث الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله[٣]

---

(١) الأعلى ٩ (٢) الغاسية ٢١

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٥٠٠

الثانى :التذكير واجب نفع أو لم ينفع .

وفى الكلام حذف أى إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع كقوله : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ أى والبرد

وهذا قول الفراء والنحاس ، ووافقهما الواحدى الذى قال : إن نفعت أو لم تنفع لأن النبي ﷺ بعث مبلغاً للإعذار والإنذار ، فعليه التذكير فى كل حال نفع أو لم ينفع .

وقال الجرجانى : التذكير واجب وإن لم ينفع ، فالمعنى : إن نفعت الذكرى أو لم تنفع . وقد قواه الشوكانى : وذكر أنه أولى (١)

الثالث : وهو قريب من الثانى : فذكر دائما وفى جميع الأحوال، و « إن » بمعنى « ما »

أى فذكر ما نفعت الذكرى ؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال .

الرابع : أن للتذكير مرحلتين :

الأولى : تكرير التذكير وإن لم ينفع تكريراً يؤدى به المذكر واجبه فى التذكير كما قال تعالى ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ وتقوم به حجة الله على خلقة كما قال الله تعالى ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾(٢)

الثانية : استمرار التذكير عند ظن الفائده منه ، ورجاء النفع لمن يوجه إليه التذكير ، وهو ما تتحدث عنه الآية الكريمة ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ﴾

---

(١) فتح القدير ٥/٤٢٤ (٢) النساء ١٦٥

أما إذا علم عدم الفائدة من التذكير ، فلا داعى لاستمراره ، لأن الاستمرار فيما لا فائدة فيه عبث .

وإنما تعلم عدم إفادة التذكير بأمور :

منها : إعلام الله تعالى بذلك كما وقع فى أبى لهب . قال تعالى فيه ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته ...﴾ (١)

فأبو لهب وامرأته لا تنفع فيهما الذكرى ؛ لأن القرآن نزل بأنهما من أهل النار بعد تكرار التذكير لهما تكرارا تقوم عليهما به الحجة ، فلا يلزم النبى ﷺ بعد علمه بذلك أن يذكرهما بشىء كما قال تعالى : ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ﴾

ومنها : قرينة الحال ، كرفض الإيمان ، والإعراض عن اتباع الرسول عناداً ولجاجا بعد العلم بحقية الإسلام وصدق الرسول ، وذلك بأن يبلغ الرسول ﷺ أحسن وأكمل ما يكون البلاغ ، وتدل على صدقه المعجزة الواضحة ، ويستيقن المدعوون بصدقه وصحة نبوته ، ثم يصر بعضهم على الكفر عنادا ولجاجا ، فهذا البعض لا يجب تكرير الذكرى له دائما ، بعد أن كررت له تكرارا لزمته الحجة (٢)

الخامس : أن التذكير المأمور به عند مظنة النفع — فى آية الأعلى

---

(١) المسد ٣ ، ٤

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آى الكتاب للشيخ محمد الأمين الشنقيطى ص ٣١٦ ، ٣١٧

هو التذكير الكثير فإن الذكرى : كثرة الذكر .

قال الراغب الأصفهانى :

الذكرى : كثرة الذكر ، وهو أبلغ من الذكر [١]

أما عندما لا يرجى نفعه ، فالمأمور به هو مجرد التذكير الذى يؤدى به الواجب ، ويتحقق الإبلاغ — وهو القليل — وذلك ما جاء فى الآيات الآمرة بالتذكير مطلقا .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ١٧٩

سورة الليل :

هدى الدلالة وهدى التوفيق

دلّ قول الله تعالى فى سورة الليل ﴿ إن علينا للهدى ﴾[1] على أن الله تعالى التزم على نفسه الهدى للناس .

بينما جاءت فى القرآن الكريم آيات تدل على أنه سبحانه لا يهدى بعض الناس .

منها قوله تعالى ﴿ كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[2] من سورة آل عمران .

وقوله تعالى ﴿ إن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾[3] من سورة المائدة .

ولا تعارض بين آية الليل ، وبين ما فى آل عمران والمائدة وغيرهما من الآيات .

فإن الهدى فى قوله ﴿ إن علينا للهدى ﴾ بمعنى الدلالة والبيان ، وقد دل الله تعالى عباده ، وأرشدهم إلى الحق بما أرسل من رسل ، وما أنزل من كتب .

وهدى الدلالة يقدر عليه الخلق كالرسل ، وأتباعهم حيث يبينون

---

(١) الليل ١٢ (٢) آل عمران ٨٦

(٣) المائدة ٦٧

طريق الحق سواء سلكها المبيَّن لهم أو لا ، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ (١)

أى بينا لهم طريق الحق على لسان نبينا صالح ﷺ ، مع أنهم لم يسلكوها بدليل قوله عز وجل ﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ ومنه أيضا قوله تعالى ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ (٢) أى بينا له طريق الخير والشر بدليل قوله ﴿ إما شاكرا وإما كفوراً ﴾

والآيات الأخرى التى أخبرت أن الله لا يهدى الظالمين ، ولا يهدى الكافرين وما إليها من الآيات ، الهدى فيها بمعنى التوفيق للايمان والحق ، وهذه التى تفرد بها الله عز وجل ، ولا يقدر عليها أحد من الخلق .

فالهدى المثبت — هنا — هدى الدلالة ، وهو للخلق كلهم ، والهدى المنفى — هنا — عن الظالمين والكافرين . هدى التوفيق للايمان والحق ونفى الثانى لا يستلزم نفى الأول (٣)

قال القرطبى : الهدى هديان . هدى دلالة ، وهو الذى يقدر عليه الرسل وأتباعهم .

قال تعالى ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ وقال ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾

فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه .

---

(١) فصلت ١٧ (٢) الإنسان ٣

(٣) فإن الأول عام ، والثانى خاص ، ونفى الأخص لا يستلزم نفى الأعم

وتفرد سبحانه بالهدى الذى معناه التأييد والتوفيق فقال لنبيه ﷺ ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ﴾ فالهدى على هذا يجىء بمعنى خلق الإيمان فى القلب .

ومنه قوله تعالى ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ وقوله ﴿ ويهدى من يشاء ﴾[١]

كما أن منه قوله تعالى ﴿ أولئك الذين هدى الله ﴾[٢] وقوله ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ﴾[٣]

ومما سبق يكون الجواب عن سؤال آخر هو :

قد أخبر الله تعالى عن القرآن بأن هداه خاص بالمتقين فى قوله فى سورة البقرة ﴿ ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾[٤]

وأخبر فى نفس السورة بأن هداه عام لجميع الناس فى قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ﴾[٥]

وخلاصة الجواب :

أن الهدى فى قوله ﴿ هدى للمتقين ﴾ هو الهدى الخاص الذى هو التفضل بتوفيقهم والهدى الذى هو لعموم الناس فى قوله ﴿هدى للناس﴾ هو الهدى العام الذى هو إبانة الطريق ، وإيضاح المحجة .

(١ تفسير القرطبى ١/١٣٩ طبعة دار الشعب

(٢) الأنعام ٩٠ (٣) الأنعام ١٢٥

(٤) البقرة ٢ (٥) البقرة ١٨٥

سورة الضحى :

نبينا لم يكن على ضلالة قبل البعثة

فهم البعض من ظاهر قول الله تعالى فى سورة الضحى ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾

أن نبينا ﷺ كان على ضلال قبل البعثة.

مع أن نصوصا أخرى من الكتاب والسنة تفيد أنه عليه الصلاة والسلام ما كان على ضلال قبل الوحى إليه ، وإنما كان على الفطرة الصحيحة التى فطر الله الناس عليها ، لم يمل إلى يهودية ، أو نصرانية ، أو مجوسية ، أو وثنية ، أو أى عقيدة فاسدة قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١)

فهذه الآية تبين : أن الناس جميعا فطروا على الإسلام والتوحيد ، لولا مؤثرات خارجية عنهم ، حولت بعضهم إلى اتباع الأديان الباطلة ، والمذاهب الزائفة كتأثير الآباء غير المسلمين فى أولادهم بتوجيههم إلى معتقداتهم الفاسدة .

روى البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : مامن مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء ، هل تحسون

---

(١) الروم ٣٠

فيها من جدعاء ثم يقول « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم[١] » .

وإذا كانت قريش عامة ، وأقاربه خاصة على الشرك والضلال ، فإنهم جميعاً لم يستطيعوا التأثير عليه ، لحفظ الله إياه من الضلال وقبائح الجاهلية . قبل بعثته حتى أنه ـ كما روى ابن سعد ـ عند ما أراده أعمامه وعماته وهو صغير على أن يحضر معهم عيداً لأصنامهم ، حال الله تعالى بينه وبين القرب منها ومسها .

ولما سئل ﷺ عن ذلك قال : إنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : وراءك يامحمد ، لاتمسه . تقول أم أيمن : فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ[٢] .

وقال ﷺ عن نفسه ـ فيما رواه على بن أبى طالب رضى الله عنه ـ « لما نشأت بغضت إلى الأصنام ، وبغض إلى الشعر ، وما هممت بقبيح مما هم به أهل الجاهلية ـ أى ويفعلونه ـ إلا مرتين من الدهر ، كلتاهما عصمنى الله عز وجل منهما[٣] ... » وهو ﷺ الذى قال لبحيرى الراهب لما استحلفه باللات والعزى أن يخبره عما يسأله عنه « لا تسألنى

---

(١) صحيح البارى بشرح فتح البارى ٨/٥١٢ : البهيمة الجمعاء : هى السليمة الخلق ، السوية الأطراف والجدعاء : المقطوعة الأطراف ؛ أو واحد منها ، والمعنى : أن المولود يولد متهيئا لقبول الحق طبعا وطوعا ، لو خلته شياطين الإنس والجن وما يختار لم يختر غيرها ، كالبهيمة تولد سليمة بجتمعه الخلق ، لولا تعرض الناس لها لبقيت ـ كما ولدت سليمة .

(٢) الطبقات الكبرى ١/١٤٠ (٣) السيرة الحلبية ١/١٤٥

باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئا بغضهما . قال: فبالله إلا أخبرتنى عما أسألك عنه . قال : « سلنى عما بدالك» . ولما اختلف صلى الله عليه وسلم مع رجل فى سوق بصرى على شىء وقال له : احلف باللات والعزى قال « ما حلفت بهما قط ، وإنى لأمر فأعرض عنهما[1] » .

التوفيق بين النصوص

إن النصوص التى تفيد أنه ﷺ لم يكن على شىء من الضلال والقبائح قبل البعثة على أصل معناها ، وما يفهم منها .

وأما آية الضحى « ووجدك ضالا فهدى » فإنها ينبغى أن تفهم على الوجه الصحيح الذى يبعد عنه صلى الله عليه وسلم الضلال قبل الوحى إليه .

قال النسفى : ولا يجوز أن يفهم به عدول عن حق ، ووقوع فى غى ، فقد كان عليه الصلاة والسلام من أول حاله إلى نزول الوحى عليه ، معصوما من عبادة الأوثان وقاذورات أهل الفسق والعصيان[2] .

وللآية معان صحيحة تنزه نبينا صلى الله عليه وسلم عن الضلال قبل البعثة نقتصر منها على ما يأتى :

١ ـ ووجدك ضالا عن شريعتك التى أوحاها الله إليك ، لا تعرفها قبل الوحى بها إليك ، فهداك إليها .

٢ ـ ووجدك بين أهل الضلال فعصمك عن أن تنهج منهجهم ، وتوافقهم فيه وهداك إلى الإيمان .

---

(١) الشفا بشرح نسيم الرياض ٤/٥٢

(٢) تفسير النسفى ٤/٣٦٤

٣ ـ ووجدك متحيرا فى البحث عن طريقة تخرج بها قومك مما هم فيه فهداك إلى الطريقة المثلى فى ذلك .

ويرتضى الشيخ محمد عبده ـ هذا المعنى الأخير ذاكراً : أن الضلال المذكور فى هذه الآية هو حيرته صلى الله عليه وسلم فى أمر العرب ، فهو يرى من فساد عقيدتهم ، وسوء أعمالهم مايجعله يفكر ويبحث عن طريقة تقويم عقيدتهم ، وتخليصهم من تحكم عاداتهم فيهم .

ثم يقول : وللخلاص من هذه الحيرة كان يطلب الخلوة بغار حراء ، يلتمس هداية ربه إلى أن سطع عليه نور الوحى ، فانتشله من هذا كله ، وعلمه كيف يرشد قومه ويخلص العالم من فساد العقل ، وسوء العمل ، وأى نعمة أكبر وأجل من هذه النعمة، هذا هو معنى قوله : «ووجدك ضالا فهدى[1] » .

وما فهمه البعض من قول الله تعالى لنبينا صلى الله عليه وسلم .

« وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان[2] » .

من أنه ينفى عن نبينا معرفته بالقرآن ، وبالإيمان قبل الوحى إليه .

فإننا نسلم بعدم معرفته صلى الله عليه وسلم بالقرآن قبل الوحى إليه ، أما أنه لم يكن مؤمناً قبل الوحى بمعنى أنه كان على ما عليه قومه فلا .

لأن الإيمان فى قوله « ولا الإيمان » مصدر بمعنى المفعول أى

---

(١) تفسير جزء عم ص ١١١ ، ١١٢

(٢) الشورى ٥٢

مايجب الإيمان به من الفرائض والأحكام الشرعية التى كلف بها علما وعملا فكان صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحى ، ومجىء الملك له رافضاً الشركاء متجهاً إلى إله واحد ، ثم نزلت الفرائض ، والأحكام الشرعية التى لم يكن يدريها قبل الوحى فآمن بها .

ويشير ابن كثير إلى أن الإيمان المنفى عن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الإيمان التفصيلى لا الإجمالى بقوله : « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » على التفصيل الذى شرع لك فى القرآن[1] .

ويقول الخازن : اختلف العلماء فى هذه الآية مع اتفاقهم على أن الأنبياء قبل النبوة كانوا مؤمنين ، فقيل معناه ما كنت تدرى قبل الوحى شرائع الإيمان ومعالمه .

وذكر أن ابن خزيمة قال : لم يرد به الإيمان الذى هو الإقرار بالله تعالى ، لأن النبى ﷺ كان قبل النبوة يوحد الله تعالى ، ولم تتبين له شرائع دينه إلا بعد الوحى إليه[2] .

وأما وصف نبينا ﷺ بالغفلة قبل أن يوحى إليه فى قوله تعالى خطاباً له « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين »[3] .

فإن المقصود بالغفلة هنا : الغفلة عن قصة يوسف عليه السلام مع أبيه

---

(١) تفسير ابن كثير ١٢٢/٤

(٢) تفسير الخازن ١٠٦/٣ (٣) يوسف ٣

وإخوته ، وهى وأمثالها لاتعلم إلا من الوحى ، فلهذا لا يلحقه نقص بسببها .

قال الفخر الرازى : « وإن كنت من قبله » يريد من قبل أن نوحى إليك « لمن الغافلين » عن قصة يوسف وإخوته ، لأنه عليه السلام إنما علم ذلك بالوحى ، ومنهم من قال : المراد أنه كان من الغافلين عن الدين والشريعة كما قال تعالى « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان »[1] .

وليس معنى أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بهجر المآثم فى قوله فى سورة المدثر « والرجز فاهجر[2] » أنه كان يفعلها ، لأن الأمر إنما هو بالثبات والاستمرار على هجرها .

قال أبو السعود فى معنى الآية : واهجر العذاب بالثبات على هجر مايؤدى إليه من المآثم[3] .

---

(١) مفاتيح الغيب ٥/١٠٥ (٢) المدثر ٥

(٣) تفسير إرشاد العقل السليم ٥/٢٠٧

سورة العاديات :

شهادة الكفار على أنفسهم بالكفر

قال الله تعالى فى سورة العاديات ﴿إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد﴾ (١).

وهاتان الآيتان والآية التى بعدها وهى ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ جواب القسم فقد أقسم رب العزة بالعاديات ضبحاً ، وهى ـ على الأصح ـ خيل الغزاة التى تعدو نحو العدو ، وتضبح ضبحاً ، وهو : صوت أنفاسها عند جريها ، وتورى قدحاً أى تخرج شرر النار من الأرض بوقع حوافرها على الحجارة من شدة الجرى. وتغير صبحاً : أى تغير على العدو وقت الصباح، فتثير الغبار الكثيف لشدة العدو وتوسط العدو فتصيبه بالرعب والفزع .

أقسم الله تعالى بذلك على أن الإنسان ، والمراد به بعض أفراده ـ وهو الكافر ـ كنود أى جاحد لنعم ربه ، شديد الكفران ، وأنه على جحوده لشهيد يشهد على نفسه به ، لظهور أثره عليه ، وإنه لحب المال قوى مجد فى طلبه متهالك فى تحصيله .

فقوله « وإنه على ذلك لشهيد » يفيد أن الكافر يشهد على نفسه بكفره مع أنا نجد آيات أخرى تفيد أن الكفار يحسبون أنهم على الهدى ، وأنهم يحسنون صنعا مثل قوله تعالى « ومن يعش عن ذكر

---

(١) العاديات ٦ ، ٧

الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون »[١] .

والمعنى : أن من أعرض عن القرآن وما فيه من الحكمة إلى أباطيل المضلين يعاقبه الله تعالى بشيطان يقيضه له ، ويلازمه قريناً له ، يتبعه ويطيعه فيما يوسوس به إليه ، فلا يهتدى ، مجازاة له حين آثر الباطل على الحق المبين .

وإن الشياطين الذين يقتضيهم الله لكل من يعشون عن ذكره ، يحولون بينهم وبين سبيل الحق ، ويمنعونهم منه ، ويوسوسون لهم أنهم على الهدى حتى يظنون صدق مايوسوسون به ، ويحسب الكفار بسبب هذه الوسوسة أنهم فى أنفسهم مهتدون[٢] .

ومثل قوله تعالى « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »[٣] .

المعنى قل يامحمد لهؤلاء الكفار : هل نخبركم بأخسر الناس عند الله الذين بطل عملهم وضاع فى هذه الحياة الدنيا ، لأن الكفر لاتنفع معه طاعة وهم يظنون أنهم محسنون بأفعالهم[٤] .

والتوفيق بين هذه الآيات

بأن الكفار يحسبون أنهم - فى الدنيا - على الحق والصواب ، ولا يدركون أنهم على ضلال وسوء عمل ، كما أفادت ذلك آيةالزخرف

---

(١) الزخرف ٣٦ ، ٣٧ (٢) فتح القدير ٤/٥٥٦

(٣) الكهف ١٠٣ ، ١٠٤

(٤) صفوة التفاسير للشيخ محمد على الصابونى ٢/٢٠٧

الزخرف والكهف وأمثالها وأما شهادتهم على أنفسهم بالكفر وجحود فضل الله فهى تكون فى الدنيا بلسان الحال كما فى قوله تعالى ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون ﴾[1] .

المعنى : ماصح للمشركين وما استقام لهم أن يعمروا مساجد الله - إما بالمعنى الحقيقى أو المجازى الذى هو التعبد فيها وملازمتها - حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر باظهار ماهو كفر من عبادة الأوثان وجعلها آلهة فان هذا شهادة منهم على أنفسهم بالكفر ، وإن أبوا ذلك بألسنتهم ، فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين : عمارة المساجد التى هى من شأن المؤمنين والشهادة على أنفسهم بالكفر التى ليست من شأن من يتقرب إلى الله بعمارة مساجده ، أولئك بطلت أعمالهم التى يفتخرون بها ، ويظنون أنها من أعمال الخير ، وفى النار هم ماكثون أبداً لايخرجون منها[2] .

وفى الآخرة بلسان المقال كما فى قوله تعالى :

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾[3] .

---

(١) التوبة ١٧ (٢) فتح القدير ٣/٣٤٤ بتصرف

(٣) الأعراف ٣٧

المعنى : لا أحد أظلم ممن تعلم الكذب على الله ، أو كذب بآياته المنزلة أولئك يصيبهم حظهم فى الدنيا مما كتب لهم وقدر من الأرزاق والآجال حتى إذا جاءتهم ملائكة الموت تقبض أرواحهم قالوا لهم ـ على سبيل التبكيت والتوبيخ ـ أين الآلهة التى كنتم تعبدونها من دون الله ؟ ادعوهم ليخلصوكم من العذاب ، قال الكفرة : لقد غابوا عنا فلا نرجوا نفعهم ولا خيرهم ، وأقروا واعترفوا على أنفسهم بالكفر والضلال[1] .

وقوله تعالى ﴿ يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾[2] .

المعنى : ينادى يوم القيامة كفار الجن والإنس : ألم يأتكم الرسل يتلون عليكم آيات ربكم ويخوفونكم عذاب هذا اليوم الشديد ؟ فلم يجدوا إلا الاعتراف فقالوا : بلى شهدنا على أنفسنا ، بأن رسلك قد أتتنا ، وأنذرتنا لقاء يومنا هذا .

قال ابن عطية : وهذا إقرار منهم بالكفر ، واعتراف على أنفسهم بالتقصير كقولهم : « قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا » .

وخدعتهم الدنيا بنعيمها وبهرجها الكاذب ، واعترفوا على أنفسهم أنهم كانوا فى الدنيا كافرين[3] .

---

(١) صفوة التفاسير ١/٤٤٤ — ٤٤٥ (٢) الأنعام ١٣٠

(٣) صفوة التفاسير ١/٤١٩

وقوله تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين[٤] ﴾ .

والزمر : الجماعات ، والمراد بكلمة العذاب قوله تعالى : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ .

وقوله تعالى عن الكفار فى الآخرة : ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير[٥] ﴾ .

أى : أقر الكفرة فى الآخرة بأنهم أجرموا فى الدنيا وكذبوا الرسل فبعداً وهلاكا لأهل النار .

ومن هذا يتبين أن لا تعارض ، فالكفار فى الدنيا يحسبون أنهم على الهدى ، وحالهم يشهد بكفرهم ، واعترافهم على أنفسهم بالكفر إنما يكون فى الآخرة .

---

(١) الزمر ٧١ (٢) الملك ١١

سورة الكافرون :

الذين حقت عليهم كلمة الله لا يؤمنون

يقول الله تعالى فى سورة الكافرون :

﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾

تفيد الآية الثالثة أن الكفار المخاطبين هنا — وهم الذين دعوا الرسول ﷺ لعبادة أوثانهم — لا يعبدون الله أبدا .

مع أنه قد ثبت أن منهم من آمن بعد ذلك وعبدالله سبحانه وحده وأنه قد دلت آيات أخرى على أن منهم من يؤمن بالله تعالى كقوله سبحانه ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين ﴾[1] ومعناه كما ذكر ابن كثير :

ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به ، ومنهم من لا يؤمن به ، بل يموت على ذلك ويبعث عليه وهو سبحانه أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن يستحق الضلالة فيضله وهو العادل الذى لا يجور ، بل يعطى كلا ما يستحقه[2]

فكيف نوفق بينهما ؟

التوفيق بينهما : بأن نفهم آية سورة يونس — وما على شاكلتها على ما هى ظاهرة فيه ، وبما يؤيده الواقع من أن بعض الكفار سيؤمن فى المستقبل ، ويعبد الله وحده .

---

(١) يونس ٤٠ (٢) تفسير ابن كثير ٢/٤١٨

وأما آيات سورة الكافرون فتحمل على واحد من اثنين :

الأول : أنها تبين أن الكفار لا يعبدون الله ما داموا كفاراً ، فاذا أسلموا لم يتناولهم ذلك ، لأنهم حينئذ مؤمنون لا كافرون .

ولعل مما يقوى هذا الوجه سبب نزول هذه السورة وهو : أن الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا إلهه سنة فأنزل الله تعالى هذه السورة ، وفيها يأمر نبيه ﷺ أن يقول للكفار ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ أى لا أعبد هذه الأصنام والأوثان التى تعبدونها .

ولذا فانهم يئسوا من استجابته لهم عندما قرأ عليهم هذه السورة ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أى ولا أنتم يا معشر المشركين عابدون إلهى الحق لأنكم علقتم عبادتكم له على عبادتى لأصنامكم ، وحيث إننى لا أفعل ذلك فأنتم بالتالى لا تعبدون إلهى ، وذلك ما داموا كفارا ، أما إذا آمنوا فانهم قطعا يعبدون الله رب العالمين .

الثانى : أنها من العام المخصوص ، فهى فى خصوص الأشقياء الذين سبق فى علم الله تعالى أنهم يموتون على الكفر .

فهؤلاء الذين لا يعبدون الله تعالى فى المستقبل هم الذين حق عليهم قضاء الله وقدره بأنهم يستمرون على الكفر ، ويموتون عليه ، لا يقع منهم الإيمان بأى حال من الأحوال ، كما قال تعالى :

﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[1]

---

(١) يونس ٩٦ ، ٩٧

سورة النجم :

ما يبلغه الرسول عن ربه وحى منه تعالى

يقول الله تعالى فى سورة النجم ﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وماغوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى ﴾[1]

هوى النجم : سقوطه ، عند إنقضاضه فى رجم الشياطين ، حين استراقها السمع

وقال الحسن : المراد فى الآية : النجوم إذا انتثرت يوم القيامة كقوله ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾[2]

يقسم تعالى بالنجم[3] إذا هوى على أن محمداً ﷺ ما ضل وماغوى

والضال : هو الجاهل الذى لا يسلك الطريق القويم بغير علم ، والغاوى هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره .

فهو عليه الصلاة والسلام راشد تابع للحق ، فتجنب الباطل

﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ : وما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن ولا بغيره .

﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ ما الذى ينطق به إلا وحى من الله تعالى يوحيه إليه .

---

(١) النجم من ١ — ٤ (٢) الانفطار ٢

(٣) لله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، والمخلوق لا ينبغى أن يقسم إلا بالخالق

فهذه الآيات تفيد أنه عليه الصلاة والسلام لا يتكلم إلا عن وحى من الله عز وجل .

مع أن آيات أخرى تفيد أنه عليه الصلاة والسلام تكلم ونطق بأشياء من غير وحى له فيها، حتى أن الله تعالى عاتبه على ما حصل منه ، مثل إذنه لبعض المتخلفين عن غزوة تبوك ، وقد عاتبه الله على هذا الإذن قال تعالى ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾[1]

ومعنى هذه الآية كما قال ابن جرير :

عفا الله عنك يا محمد ما كان منك فى إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك فى ترك الخروج معك ، وفى التخلف عنك ، من قبل أن تعلم صدقهم من كذبهم . وما كان ينبغى لك أن تأذن لهم فى التخلف عنك إذ قالوا لك :لو استطعنا لخرجنا معكم حتى تعرف من له العذر منهم فى تخلفه ، ومن لا عذر له منهم فيكون إذنك لمن أذنت له منهم على علم منك بعذره وتعلم من الكاذب منهم المتخلف نفاقا وشكا فى دين الله [2]

والجواب

أن ما ينطق به الرسول ﷺ إن كان تبليغا عن الله تعالى فهو لا يكون عن هوى إنما كل ما يبلغه عن ربه بوحى منه سبحانه ، ولا يقول على الله شيئا من عند نفسه ، وفى هذا رد على الكفار الذين زعموا

---

(١) التوبة ٤٣

(٢) جامع البيان ١٤/٢٧٢

أن النبي ﷺ افترى هذا القرآن ، وقد أقسم الرسول ﷺ على أنه لم يتكلم إلا بالحق — تبليغا عن ربه — عندما ذكر البعض أن بشرية الرسول ربما تجعله يقول عند الغضب كلاما يكون فيه متأثراً بغضبه .

روى الإمام أحمد من مسنده بسنده عن عبدالله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ — أريد حفظه ، فنهتني قريش فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب فأمسكت عن الكتاب (١) فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : أكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق .(٢)

وروى الإمام أحمد — أيضا — بسنده عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا أقول إلا حقا » قال بعض أصحابه : فانك تداعبنا يا رسول الله قال : « إني لا أقول إلا حقا »(٣)

وروى أبو بكر البزار بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « ما أخبرتكم أنه الذي من عند الله فهو الذي لا شك فيه »(٤)

وأما ما ليس تبليغا عن الله تعالى ، بل وكل الرسول فيه لاجتهاده كإذنه ﷺ للمتخلفين عن غزوة تبوك ، فلا يكون قوله فيه نطقا عن الهوى حيث لا يخالف نهيا تقدم له ، وإنما عن اجتهاد ظهر له فيه أن هؤلاء المعتذرين لا يستطيعون الخروج معه للغزو .

وكثيرا ما كان المنافقون — مبالغة منهم في إخفاء حقيقتهم —

---

(١) أي عن الكتابة
(٢) مسند الإمام أحمد ٢/١٦٢
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٣٤٠
(٤) تفسير ابن كثير ٤/٢٤٧

يحلفون بالله على ما يقولون ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾[١]

والرسول ﷺ بشر لا اطلاع له على بواطن الناس إلا فيما يطلعه الله تعالى عليه منهم ، وحتى وقت الإذن لهم فى التخلف لم يكن قد أطلعه الله على أنهم منافقون كاذبون .

وكإخباره ﷺ بأن ترك تأبير[٢] النخل يصلحها فيما رواه مسلم بسنده عن أنس أن النبى ﷺ مرّ بقوم يلقحون النخل فقال : «لو لم تفعلوا لصلح قال فخرج شيصا ، فمر بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا ، قال : أنتم أعلم بأمور دنياكم »[٣]

فهذا كما قال العلماء رجاء ، والرجاء لا يوصف بصدق ولا كذب وأنه من باب الظن والرأى فى أمور المعاش .

قال النووى : قال العلماء : لم يسكن هذا القول خبرا ، وإنما كان ظنا ، ورأيه ﷺ فى أمور المعايش وظنه كغيره ، فلا يمتنع وقوع مثل هذا ولا نقص فى ذلك[٤]

وعلى هذا فأقوال الرسول ﷺ التى من باب الاجتهاد وإعمال الرأى فى أمور المعاش لا توصف بصدق ولا كذب .

---

(١) المنافقون ٢

(٢) تأبير النخل : وضع طلع الذكر فى الأنثى ، وبه يصلح ثمرها ، ويسمى أيضاً التلقيح وتركه يفسد ثمرتها فتصير شيصا

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ١١٨/١٥

(٤) شرح النووى على صحيح مسلم للحديث السابق

سورة البقرة :

لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى

فى القرآن الكريم آيات تفيد أنه لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى، مثل قوله تعالى :

﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (١)

وقوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾ (٢)

وقوله تعالى ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (٣)

وقوله تعالى ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (٤)

بينما نجد آيات أخرى تصرح بأن الضالين يحملون أوزارهم كاملة ويحملون أيضا من أوزار الأتباع الذين اتبعوهم فى الضلال .

---

(١) النجم ٣٦ — ٣٨

(٢) فاطر ١٨

المعنى : وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفسا أخرى إلى حمل شىء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئاً ، ولو كانت قريبة لها فى النسب فكيف بغيرها مما لا قرابة بينها وبين الداعية لها ؟

(٣) الاسراء ١٥ (٤) الأنعام ١٦٤

مثل قوله تعالى ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ﴾ (١)

وقوله تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ (٢)

ولا تعارض فى هذا

وبيان ذلك كما يلى :

إن كل نفس تحمل وزر ما ارتكبت من سوء ، ولا يؤاخذ بمعصيتها سواها وكل كسب للشر على مرتكبه لا يتعداه إلى غيره كما قال تعالى: ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ (٣)

وكما قال تعالى أيضا ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما ﴾ (٤)

وقد قيل : فى تفسيرها : فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم بأن ينقص من حسناته .

وكما قال سبحانه ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين ﴾ (٥)

والمعنى : كل نفس مرتهنة بكسبها وعملها السيء ، إلا أصحاب اليمين فإن بركة أعمالهم الصالحة تعود على ذرياتهم كما قال تعالى — فى سورة

---

(١) النحل ٢٥ (٢) العنكبوت ١٣

(٣) البقرة ٢٨٦ (٤) طه ١١٢

(٥) المدثر ٣٨ ، ٣٩

الطور ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين ﴾[١]

والمراد بقوله ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ فى الآيات المتقدمة واحد من اثنين :

الأول : أن ذلك فى الآخرة ، فلا تحمل نفس يوم القيامة ذنب نفس أخرى

أما فى الدنيا فقد تصيب المحنة الناس صالحهم وطالحهم من جراء الطالحين .

لقوله تعالى ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾[٢]

أى اتقوا محنة يعم الله بها المسىء وغيره ، لا يخص بها أهل المعاصى ، ولا من باشروا الذنوب وحدهم ، بل يعم الطالح والصالح .

روى الإمام أحمد بسنده عن عدى بن عميرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة »[٣] .

وروى الإمام أحمد أيضاً بسنده عن عائشة رضى الله عنها تبلغ به النبى ﷺ « إذا ظهر السوء فى الأرض أنزل الله بأهل الأرض بأسه» فقلت : وفيهم أهل طاعة الله ؟ قال « نعم ثم يصيرون إلى رحمة الله[٤] » .

---

(١) الطور ٢١ (٢) الأنفال ٢٥

(٣) مسند أحمد ١٩٢/٤ (٤) مسند أحمد ٤١/٦

وقد ذكر الشوكاني : أنه يمكن حمل ما في الآية والحديثين على العقوبات الدنيوية تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض .

ويمكن أن يكون هذا في العقوبات العامة .

ويمكن أن يقال : إن الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب كترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتكون الإصابة التي تعدت الظالم إلى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم .

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب .

الثاني : أنها من العام المخصوص .

فقوله « ولا تزر وازرة وزر أخرى » عام خصص بما جاء فيه المؤاخذة بذنب الغير .

يقول الشوكاني : والأولى حمل الآية على ظاهرها أعني العموم ، وما ورد من المؤاخذة بذنب الغير كالدية التي تحملها العاقلة ونحو ذلك فيكون في حكم المخصص لهذا العموم ، ويقر في موضعه[1] .

وأما آيات المجموعة الثانية التي تفيد تحمل الضالين أوزارهم وبعض أوزار الذين اتبعوهم في الضلال ، فلا تعارض آيات المجموعة الأولى ، بل هي متوافقة معها ، فإن الضالين إنما حملوا أوزار أنفسهم حيث ضلوا ، فحملوا وزر الضلال ، وأضلوا غيرهم ، فحملوا أيضاً وزر إضلال الآخرين .

---

(١) فتح القدير ٢/٣٠

يقول ابن كثير فى معنى الآية ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ .

إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك (القرآن أساطير الأولين) ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم ، أى يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم لغيرهم ، واقتداء أولئك بهم كما جاء فى الحديث « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً »[1]

وقال تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾[2] .

---

(١) مسند الامام أحمد ٢/٢٩٧ (٢) تفسير ابن كثير ٢/٥٥٦

سورة النجم (٣)

الانتفاع بسعي الغير

يقول الله تعالى في سورة النجم ﴿وأن ليس للانسان إلا ماسعى﴾[١].

والمعنى : ليس للانسان إلا أجر سعيه ، وجزاء عمله ، ولا ينفع أحداً عمل غيره

وقد دلت آية أخرى على أن الذرية المؤمنة تلحق بالآباء المؤمنين في درجتهم في الجنة ، وإن لم يبلغوا عملهم ، وفي هذا انتفاع بسعي الغير وهي قوله تعالى ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين ﴾[٢].

روى عن ابن عباس في معنى الآية قوله: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقرّ بهم عينه .

وروى عنه أيضاً قوله : هم ذرية المؤمن يموتون على الايمان ، فان كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئاً[٣] .

والجواب بواحد من اثنين

الأول : أن المؤمن ينتفع بعمل نفسه ، وفضل الله تعالى عليه ، فإيمانه وطاعته سعى منه يستفيد به ، ويتداركه مع هذا فضل ربه عليه ،

---

(١) النجم ٣٩ (٢) الطور ٢١

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٢٤١ — ٢٤٢

فى كل الأمور حتى دخول الجنـة ، فإنه يناله المؤمن بفضل الله ورحمته ففى الحديث .

« لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

والذرية المؤمنـة كان منها السعى الذى هو الإيمان والعمل الصالح الذى عرضها بفضل الله لرفع درجتها .

وعلى هذا ، فرفع درجة الذرية ليس بسعى الآباء حتى يقال : انتفع بكسب الغير وإنما هو بفضل الله لتقر أعين الآباء بوجود ذرياتهم معهم فى درجاتهم .

وأما ماورد فى انتفاع الميت بثواب صدقته الجارية ، وعلمه المنتفع به ، ودعاء ولده الصالح له فى الحديث الذى رواه مسـلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صـدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[1] .

فهذه الثـلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وعمله ، فالصـدقة الجارية كالوقف ونحوه هى من آثار عمله وقد قال تعـالى: ﴿ إنا نحن نحيى الموتى ونـكتب ماقدموا وآثارهم[2] ﴾ .

والعلم الذى نشره فى الناس فانتفعوا به هو من سـعيه وكسبه ،

---

(١) صحيح مسلم كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٦٧/٤ طبعة الشعب

(٢) يس الآية ١٢

وثبت فى الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً » .

والولد أيضاً من كسب الوالد كما جاء فى الحديث « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه[1] » .

الثانى : أن هذا من العام المخصوص . فآية النجم ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى ﴾ عامة خصصت بآية الطور « ألحقنا بهم ذريتهم » وبما ورد فى شفاعة الأنبياء والملائكة للعباد ، وبما ورد فى انتفاع الأموات بدعاء الأحياء — كما فى الحديث السابق « أو ولد صالح يدعو له » وبتصدقهم عنهم أيضا ، كما فى الحديث الذى رواه مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إن أمى افتُلتت نفسها ولم توص ، وأظنها لو تكلمت تصدقت ، أفلها أجر إن تصدقت عنها ؟ « قال نعم[1] » .

قال الشيخ تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية : من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد خرق الإجماع وذلك باطل من وجوه كثيرة (عد منها واحداً وعشرين ونجتزىء بذكر بعضها) .

أحدها : أن الانسان ينتفع بدعاء غيره ، وهو انتفاع بعمل الغير .

ثانيها : أن النبى ﷺ يشفع لأهل الموقف فى الحساب ، ثم لأهل الجنة فى دخولها .

ثالثها : لأهل الكبائر فى الخروج من النار ، وهذا انتفاع بسعى الغير .

---

(١) صحيح مسلم ١٦٦/٤

رابعها : أن الملائكة يدعون ويستغفرون لمن فى الأرض ، وذلك منفعة بعمل الغير .

خامسها : أن الميت ينتفع بالصدقة عنه وبالعتق بنص السنة والإجماع وهو من عمل الغير .

سادسها : أن الميت المدين تبرأ ذمته بقضاء دينه عنه[1] .

وقال الشوكانى : ولم يصب من قال : إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور ، فإن الخاص لا ينسخ العام ، بل يخصصه ، فكل ما قام الدليل على أن الإنسان ينتفع به وهو من غير سعيه كان مخصصا لما فى هذه الآية من العموم[2] .

---

(١) تفسير الجمل ٤/٢٣٦ (٢) فتح القدير ٥/١١٤

سورة الشمس :

العبد بين الضلالة والهدى

قال الله تعالى ﴿ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها [١] ﴾ .

المفسرين فى معنى « فألهمها » قولان :

الأول : عرفها وبين لها طريق الخير وطريق الشر ، وعليه فلا إشكال فى الآية .

الثانى : جعل فيها الفجور والتقوى ، بالخذلان الأولى ، والتوفيق للثانية ، فالله تعالى خلق فى الكافر فجوره ، وخلق فى المؤمن تقواه .

وعلى المعنى الثانى قد يظن البعض تعارضها مع الآيات الدالة على أن فجور العبد وتقواه باختياره ومشيئته كقوله تعالى : « فاستحبوا العمى على الهدى [٢] » .

وقوله تعالى : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر [٣] » .

وقوله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » [٤]

ونقول :

إن الزاعمين : أن العبد يخلق أعمال نفسه استقلالا من غير تأثير لقدرة الله فيه وهم القدرية قد اخطأوا وضلوا ضلالا بعيدا .

---

(١) الشمس ٧ ، ٨ (٢) فصلت ١٧

(٣) الكهف ٢٩ (٤) البقرة ١٦

والذين ذهبوا إلى أن العبد لا عمل له أصلا حتى يؤاخذ به قد ضلوا كذلك .

والصواب ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن للعبد افعالا إختيارية عليها يكون الثواب إن كانت خيرا وطاعة وبراء، أو العقاب إن كانت شراً ومعصية وفسقا .

وأن الله تعالى خالق كل شيء ، فهو خالق العبد ، وخالق قدرته وإراته ، وتأثير قدرة العبد يكون بمشيئة الله تعالى ، إذ يفعل اختيارا بالإرادة والقدرة اللتين خلقهما الله تعالى فيه .

والله تعالى قد بين لعباده طريق الخير وطريق الشر ، وجعل للانسان عقلا يميز به هذا من ذاك ، وأرسل الرسل هداة ومرشدين ، ومبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

والإنسان لا يدرى ما قدره الله عليه ، ولذا فليس من حقه أن يتعلل لكفره وعصيانه بأن الله تعالى قدر عليه ذلك ، وهو لا يملك مدافعة إرادة الله ومشيئته .

ولا يعقل كذلك أن يقع فى ملك رب العالمين ، وخالق الخلق أجمعين شيء لا يريده وكيف يتحكم العبد وهو المخلوق فيفعل فعلا لا يريده الرب الخالق .

وقد قال تعالى « وما تشاءون إلا أن يشاء الله[1] » فأثبت للعبد مشيئة وبين أنه لا مشيئة للعبد إلا بمشيئة الله عز وجل .

---

(١) الآيات بتمامها من سورة الانسان ٢٩، ٣٠، ٣١ « إن هذه تذكرة ←

روى مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى الأسود الدئلى قال : قال لى عمران بن الحصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ؟ أشىء قُضى عليهم ومضى عليهم من قدَر ماسبَق أو فيما يُستقبَلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت : بل شىء قضى عليهم ؛ ومضى عليهم . قال : فقال : أفلا يكون ظلماً ؟ قال : ففزعت من ذلك فزعاً شديداً ، وقلت : كل شىء خلْق الله وملك يده ، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون ؛ فقال لى يرحمك الله : إنى لم أردبما سألتك إلا لأَحْزُرَ عقلك : إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ ؛ فقالا : يارسول الله أرأيت مايعمل الناس اليوم ويكدحون فيه . أشىء قضى عليهم ومضى فيهم من قدَر قد سبَق أو فيما يُستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقال : لا ، بل شىء قضى عليهم ، ومضى فيهم ، وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل «ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها[1]»

وروى مسلم أيضا بسنده عن عمران بن حصين قال : «قيل يارسول أعُلم أهل الجنة من أهـل النـار ؟ قال : فقال : نعم ، قال : قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال . كل ميسر لما خلق له[2] » .

←فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا . وماتشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما . يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما »

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٥/٥٠٤ ، ٥٠٥ ، كتاب القدر — طبعة الشعب

(٢) المرجع السابق ص ٥٠٤

سورة التين والقيامة والواقعة :

القسم بمكة ويوم القيامة ومواقع النجوم

أقسم الله تعالى بالبلد الأمين وهى مكة فى قوله «والتين والزيتون وطور سينين . وهذا البلد الأمين » .

مع أنه تعالى قال فى سورة البلد « لا أقسم بهذا البلد » والمتبادر من ظاهره : أنه تعالى لا يقسم بهذا البلد وهى مكة المكرمة .

كما أقسم تعالى بيوم القيامة فى سورة البروج قال تعالى « والسماء ذات البروج . واليوم الموعود » واليوم الموعود : هو يوم القيامة مع أن ظاهر قوله تعالى فى سورة القيامة « لاأقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة » عدم القسم به .

كذلك فى سورة الواقعة نفى القسم بمواقع النجوم « فلا أقسم بمواقع النجوم » ثم إثبات له فى الآية التالية « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم »[1] .

والجواب :

أن الله تعالى أقسم بالبلد الأمين ، وبيوم القيامة ، وبمواقع النجوم

ويكون الكلام فى « لا » بواحد من الوجوه الآتية :

الأول : أن « لا » صلة ، على عادة العرب فانها ربما لفظت بلفظة «لا» من غير قصد النفى ، بل لتقوية الكلام وتوكيده كقول موسى عليه السلام — فيما حكاه القرآن الكريم — لأخيه هرون عليه السلام «

---

(١) الواقعة ٧٥ ، ٧٦

لما وجد قومه عبدوا العجل فى غيبته « قال ياهرون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعن أفعصيت أمرى[١] » يعنى : أن تتبعن .

وقوله تعالى لإبليس ، لما امتنع من السجود لآدم — كما أمره الله « قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك »[٢] أى أن تسجد بدليل قوله تعالى فى سورة « ص » ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ﴾[٣] :

وقوله تعالى ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله ﴾[٤] أى ليعلم أهل الكتاب .

وقوله تعالى «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »[٥] أى فوربك .

ووردت زيادة «لا» فى الشعر كثيراً .

كقول العجاج

فى بئر لا حور سرى وماشعر بافكه حتى رأى الصبح جشر

فالحور : الهلكة يعنى فى بئر هالكة «ولا» زائدة .

وكقول القائل :

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة وكاد صميم القلب لا يتقطع

أى : يتقطع

---

(١) طه ٩٢ ، ٩٣ (٢) الأعراف ١٢

(٣) ص ٧٥ (٤) الحديد ٢٩

(٥) النساء ٦٥

الوجه الثانى : أن «لا» رد لكلام المشركين المكذبين للنبى ﷺ وقوله «أقسم» إثبات مستأنف كقول القائل : لا والله. فلا. رد لكلام قد تقدمها ، ومنه قول الشاعر :

فلا وأبيك ابنة العامرى لايدعى القوم أنى أفر

وضعف هذا الوجه بأن حذف اسم «لا» وخبرها غير جائز .

الوجه الثالث : أن «لا» للنفى ، لكن لا لنفى الأقسام ، بل لنفى ما ينبغى عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه ، كأن معنى : لا أقسم بكذا . لا أعظمه بإقسامى به ، فإنه عظيم فى نفسه ، أقسم به أولا ، وهذا القول ذكره الزمخشرى والألوسى : ولا يخلو من بعد .

الوجه الرابع : أن اللام لام الابتداء ، والاصل لأقسم ، أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف ، والعرب ربما أشبعت الفتحة بألف ، والكسرة بياء ، والضمة بواو فمثاله فى الفتحة قول الراجز :

إذا العجوز غضبت فطلق ولا ترضاها ولا تملق

فالأصل : ترضها ، لأن الفعل مجزوم بلا الناهية .

وفى إشباع الكسرة بالياء قول قيس بن زهير :

ألم يأتيك والأنباء تنمى بما لاقت لبون بنى زياد

فالأصل يأتك لوجود الجازم .

وفى إشباع الضمة بالواو قول الراجز :

لو أن عمراً همّ أن يرقودا فانهض فشد المئزر المعقودا

يعنى : يرقد ، ويدل لهذا الوجه قراءة الحسن والأعمش « لأقسم » من غير ألف والوجه الأول أرجحها جميعها .

سـورة القيامة :

رؤية الله عز وجل

أخبر الحق سبحانه أنه يرى بالأبصار فى أكثر من آية فى القرآن الكريم من ذلك :

قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة[١] » .

وقوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة[٢] » والحسنى : الجنة . والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم .

وقوله تعالى فى الكفار ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون[٣] ﴾ ويفهم من دليل خطابه أن المؤمنين ليسوا محجوبين عن ربهم .

وقد جاء فى آية أخرى أنه لايدرك بالأبصار وهى قوله تعالى ﴿ لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير[٤] ﴾

فكيف نوفق بين هذه الآية والآيات السابقة عليها ؟

التوفيق بينها بواحد من الأوجه الثلاثة الآتية :

الأول : أن المؤمنين يرون ربهم فى الآخرة كما نطقت بذلك آيات القيامة ويونس والمطففين ، وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة عن نبينا ﷺ ومنها مارواه الإمام مسلم بسنده عن صهيب عن النبى ﷺ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة . قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار .

---

(١) القيامة ٢٢ ، ٢٣ (٢) يونس ٢٦

(٣) المطففين ١٥ (٤) الأنعام ١٠٣

قال: فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل (١) » .

ولقد أخطأ خطأ بينا من زعم أن الله تعالى لا يراه أحد من خلقه ، وأن رؤيته مستحيلة عقلا ، وذلك أن الرؤية — عندهم — تتوقف على اتصال الأشعة بالمرئى ، وتستلزم أن يكون المرئى فى جهة ، وأن يكون مقابلا للرائى ، وكل هذا لا يجوز على الله تعالى .

ويرد على شبههم هذه بما قاله أهل الحق من أن الرؤية قوة يجعلها الله تعالى فى خلقه ، ولا يشترط فيها اتصال الأشعة ، ولا مقابلة المرئى ولا غير ذلك ، لكن جرت العادة فى رؤية بعضنا بعضا بوجود ذلك على جهة الاتفاق لا على سبيل الاشتراط كما لا يلزم من رؤية الله تعالى إثبات جهة له — تعالى عن ذلك — بل يراه المؤمنون لا فى جهة ، كما يعلمونه لا فى جهة ، وفسروا قوله ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ بأن ناظرة: بمعنى منتظرة ، وأن المؤمنين ينتظرون مالهم عند الله من الثواب والنعمة وهذا التفسير خطأ ، لأنه لا يقال: نظر إلى كذا ، بمعنى : انتظر وأن قول القائل نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين ، وأذا أرادوا الانتظار قالوا : نظرته كما أن من الخطأ قولهم : إن «إلى» بمعنى نعمة ، والمعنى: منتظرة نعمة ربها وأما تمسكهم بالآية الكريمة التى معنا وهى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ على أن الإدراك هو الرؤية ، فالآية تنفى رؤية الأبصار لله عز وجل فيرد عليهم بأن الإدراك المنفى فى الآية هو الرؤية مع إحاطة بالكنه ، أما مطلق

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٣/١٧

الرؤية فلا تدل الآية على نفيه ، بل هو ثابت بالآيات القرآنيـــة ، والأحاديث الصحيحة واتفاق أهل السنة والجماعة على ذلك .

فمعنى ﴿ لاتدركه الأبصار ﴾ لاتحيط به ، كما أنه تعالى يعلمه الخلق ولا يحيطون به علما .

ومعلوم : أن نفى الأخص لا يستلزم نفى الأعم ، فانتفاء الإدراك لايلزم منه انتفاء مطلق الرؤية ، فالله تعالى يراه المؤمنون فى الآخرة ، ولا يدركون كنهه .

الوجه الثانى :

أن المعنى : لاتدركه الأبصار فى الدنيا ، فلا ينافى الرؤية فى الآخرة ورؤية البارى سبحانه فى الدنيا جائزة عقلا ، لأن كل موجود يجوز أن يرى عقلا ، وسؤال موسى عليه السلام إياها دليل على جوازها ، إذ لا يجهل نبى مايجوز وما يمتنع على ربه .

أما وقوع الرؤية فى الدنيا فقد اختلف فيها — كما قال القاضى عياض رحمه الله تعالى : اختلف السلف والخلف هل رأى نبينا ﷺ ربه ليلـة الإسراء ؟ فأنـكرته عائشة رضى الله عنها كما وقع فى صحيح مسلم .

فقد روى مسلم بسنده فى صحيحه عن مسروق قال : كنت متكئا عند عائشة . فقالت : ياأبا عائشة ثلاث من تـكلم بواحدة منهن ، فقد أعظم على الله الفرية .

قلت : ماهن ؟ قالت : من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم

على الله الفرية . قال : وكنت متكئا فجلست فقلت : يأم المؤمنين : انظريني ولا تعجليني ،ألم يقل الله عز وجل ﴿ولقد رآه بالأفق المبين[١]﴾ ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾[٢] فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء ، سادًّا عظم خلقه ما بين السماء والأرض ، فقالت : أولم تسمع أن الله يقول ﴿ لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ أو لم تسمع أن الله يقول ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء إنه على حكيم ﴾[٣] .

قالت : ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول ﴿ يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته[٤] ﴾ .

قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية والله يقول ﴿ قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾[٥] .

وقد خالف عائشة ابن عباس رضى الله عن الصحابة جميعا ، فعنه أن نبينا ﷺ رأى ربه بعينه ، وروى عنه : أنه رآه بفؤاده مرتين[٦]

ويرجح النووى مذهب ابن عباس ويجيب عن الآيتين اللتين استندت إليهما عائشة فيقول :

---

(١) التكوير ٢٣ (٢) النجم ١٣

(٣) الشورى ٥١ (٤) المائدة ٦٧

(٥) النمل ٦٥ (٦) صحيح مسلم بشرح النووى ٣/٧

الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره ، وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول الله ﷺ . هذا مما لا ينبغي أن يتشكك فيه .

ثم إن عائشة رضي الله عنها لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ ، ولو كان معها فيه حديث لذكرته ، وإنما اعتمدت الاستنباط من الآيات وسنوضح الجواب عنها .

فأما احتجاج عائشة بقول الله تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ فجوابه ظاهر ، فان الإدراك هو الإحاطة ، والله تعالى لا يحاط به ، وإذا ورد النص بنفي الإحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة .

وأجيب عن الآية بأجوبة أخرى لا حاجة إليها .

وأما احتجاجها رضي الله عنها بقول الله ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ﴾ .. الآية فالجواب عنه من أوجه .

أحدها : أنه لا يلزم من الرؤية وجود الكلام حال الرؤية ، فيجوز وجود الرؤية من غير كلام .

الثاني : أنه عام مخصوص بما تقدم من الأدلة .

الثالث : ما قاله بعض العلماء : أن المراد بالوحي : الكلام من غير واسطة وهذا الذي قاله هذا القائل وإن كان محتملا ، ولكن الجمهور على أن المراد بالوحي هنا الالهام ، والرؤية في المنام ، وكلاهما يسمى وحيا .

وأما قوله تعالى ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ فقال الواحدي وغيره : معناه

غير مجاهر لهم بالكلام ، بل يسمعون كلامه سبحانه وتعالى من حيث لا يرونه وليس المراد : ان هناك حجابا يفصل موضعا من موضع ، ويدل على تحديد المحجوب فهو بمنزلة مايسمع من وراء حجاب حيث لم ير المتكلم[1] .

الوجه الثالث :

ماذهب إليه بعض العلماء من أن الآية من العام المخصوص فمعنى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ لاتدركه جميع الأبصار وهذا عام مخصوص بما ثبت من رؤية المؤمنين له فى الدار الآخرة .

---

(١) شرح النووى لصحيح مسلم ٣/٥ ٩٠

سورة المرسلات :

نطق الكفار فى الآخرة وعدم نطقهم

فى القرآن الكريم آيات تخبر أن الكفار يوم القيامة لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فى الاعتذار .

وطائفة أخرى من الآيات تفيد أنهم ينطقون ، وينكرون أحيانا ما وقع منهم فى الدنيا ، وأحيانا يختصمون ، وأحيانا يعتذرون ، ولا يقبل اعتذارهم .

فكيف نوفق بين ذلك

نستعرض أولا الآيات بقسميها ، ثم نوفق بينها ثانيا

آيات الطائفة الأولى :

منها قول الله تعالى « هـذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون »[1]

وهو يفيد : أن الكفار فى الآخرة لا يقدرون على الكلام ، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا .

وقول الله تعالى « ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون »[2]

أى : وجب الغضب عليهم ، أو حق العذاب عليهم بسبب الظلم الذى أعظم أنواعه الشرك بالله ، فهم لا ينطقون ، إذ ليس لهم عذر ينطقون به ، أو لا يقدرون على القول لما يرونه من الهول العظيم ، وقال أكثر المفسرين : يختم على أفواههم فلا ينطقون .

---

(١) المرسلات ٣٥ ، ٣٦ (٢) النمل ٨٥

وآيات القسم الثانى : التى تدل على أنهم ينطقون .

منها : ما يحكى إنكارهم فى الآخرة أنهم أشركوا فى الدنيا ، أو عملوا سوءاً .

ومنها ما يحكى اختصامهم، ومنها ما يحكى اعتذارهم عما صدر منهم من قبيح .

فأما ما يحكى إنكارهم الشرك وعمل السوء فى الدنيا فمثل قوله تعالى « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون »(١)

المعنى : الذين تقبض الملائكة أرواحهم الخبيثة حال كونهم ظالمى أنفسهم بالكفر والإشراك بالله استسلموا وانقادوا عند الموت على خلاف ما اعتادوه فى الدنيا من العناد والمكابرة وقالوا : ما أشركنا ولا عصينا فيكون الرد عليهم ، كذبتم ، لقد عملتم السوء ، والله عليم بما عملتموه فى الدنيا ومجازيكم عليه

هذا فى إنكارهم الشرك عند الموت والاحتضار .

وأما إنكارهم الشرك يوم القيامة ففى قوله تعالى :

« ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون * ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين »(٢)

أى : اذكر يوم نحشرهم جميعا للحساب ونقول لهم على رءوس الأشهاد : أين آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله ؟

---

(١) النحل ٢٨ (٢) الأنعام ٢٢ ، ٢٣

قال البيضاوى : والمراد من الاستفهام التوبيخ و « تزعمون » أى تزعمونها آلهة وشركاء مع الله ، ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها فى الساعة التى علقوا بها الرجاء فيها (١)

ثم لم يكن جوابهم حين وبخوا بهذا السؤال إلا أن أقسموا كاذبين بقولهم والله يا ربنا ما كنا مشركين .

وفى النار أيضاً ينكرون عبادة من عبدوهم من دون الله يقول تعالى : ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون . ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين (٢) ﴾ .

وواضح من هذه الآيات أن المشركين يقال لهم - على سبيل التوبيخ أين هم الأوثان والأصنام التى كنتم تعبدونها ، وتجعلونها شركاء لله ، فيجيبون قائلين غابوا عنا فلا نراهم ، بل لم نكن نعبد شيئاً .

قال المفسرون : جحدوا عبادتهم ، وإنما فعلوا ذلك لحيرتهم واضطرابهم ، ومثل ذلك الضلال يضل الله الكافرين حيث عبدوا هذه الأصنام التى أوصلتهم إلى النار .

وأما الآيات التى تحكى الاختصام يوم القيامة ، فمنها ما يحكى الاختصام بين النبى ﷺ وبين الكافرين مثل قوله تعالى : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون (٣) ﴾ .

---

(١) تفسير البيضاوى ص ١٦٩ (٢) غافر ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤

(٣) الزمر ٣٠ ، ٣١

أى إنك يامحمد تحتج عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ التى من جملتها ما فى هذه الآيات ، واجتهدت فى الدعوة إلى الحق ، وهم قد لجوا فى المكابرة والعناد .

وقيل : المراد به الاختصام العام الجارى فى الدنيا بين الأنام ، والأول هو الأظهر الأنسب بما بعده ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين[1] ﴾ .

ومنها ما يحكى الاختصام بين الكفرة ومعبوديهم فى النار مثل قوله تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين . وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون . فكبكبوا فيها هم والغاوون . وجنود إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا إلا المجرمون[2] ﴾ .

المعنى : وأظهرت النار للمجرمين الضالين حتى رأوها بارزة أمامهم مكشوفة للعيان ، فالمؤمنون يرون الجنة فتحصل لهم البهجة والسرور ، والغاوون يرون جهنم فتحصل لهم المساءة والأحزان ، وقيل للمجرمين على سبيل التقريع والتوبيخ أين آلهتكم الذين عبدتموهم من الأصنام والأنداد ؟ هل ينقذوكم من عذاب الله . أو يستطيعون أن يدفعوه عن أنفسهم ؟ وهذا كله توبيخ .

فألقوا على رءوسهم فى جهنم .

---

(١) تفسير أبو السعود ٢٥٣/٧ بتصرف

(٢) الشعراء من ٩١ إلى ٩٩

وقال الطبرى : رمى بعضهم على بعض ، وطرح بعضهم على بعض متكبين على وجوههم[١] المعبودون والعابدون لهم كقوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ . وأتباع إبليس قاطبة من الجن والإنس .

ثم قال العابدون لمعبوديهم . وهم فى الجحيم يتنازعون ويتخاصمون : نقسم بالله لقد كنا فى ضلال واضح ، وبعد عن الحق ظاهر حين عبدناكم مع رب العالمين وجعلناكم مثله فى استحقاق العبادة[٢] .

أو : أن المعنى : قال الأتباع الضعفاء للذين استكبروا تالله لقد كنا فى ضلال ظاهر إذ جعلنا أمركم مطاعا كما يطاع أمر رب العالمين[٣] .

وما أضلنا عن الهدى إلا الرؤساء والكبراء الذين زينوا لنا الكفر والعاصى ومما هو ظاهر فى الاختصام بين الكفرة بعضهم وبعض فى النار قوله تعالى :

﴿ قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادارکوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون[٤] ﴾ .

المعنى : يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء المكذبين بآياته : ادخلوا

---

(١) تفسير الطبرى ١٩/٥٥ (٢) صفوة التفاسير ٢/٣٨٥

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٣٤٠ بتصرف (٤) الأعراف ٣٨ ، ٣٩ .

مع أمم أمثالكم من كفار الأمم الماضية من الجن والإنس فى نار جهنم كلما دخلت طائفة النار لعنت التى قبلها لضلالها بها .

قال الألوسى : يلعن الأتباع القادة يقولون : أنتم أوردتمونا هذه الموارد فلعنكم الله تعالى[١] .

والمراد : أن أهل النار يلعن بعضهم بعضا[٢] ، حتى إذا تلاحقوا واجتمعوا فى النار كلهم . قال الأتباع للقادة والرؤساء الذين أضلوهم : ياربنا هؤلاء الذين أضلونا عن سبيلك ، وزينوا لنا طاعة الشيطان ، فأذقهم العذاب مضاعفا لأنهم تسببوا فى كفرنا ، ونظير هذه الآية .

﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا[٣] ﴾ .

قال لكل من القادة والأتباع عذاب مضاعف ، أما القادة فلضلالهم وإضلالهم ، وأما الأتباع فلكفرهم وتقليدهم ، ولكن لا تعلمون هوله ، ولهذا تسألون لهم مضاعفة العذاب .

وقال القادة للأتباع : لا فضل لكم علينا فى تخفيف العذاب ، فنحن متساوون فى الضلال ، وفى استحقاق العذات الأليم ، فذوقوا عذاب جهنم بسبب إجرامكم .

والذى يحكى اعتذارهم فى الآخرة قوله تعالى :

﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار[٤] ﴾ .

---

(١) روح المعانى ١٦٦/٨ (٢) العنكبوت ٢٥

(٣) الأحزاب ٦٧ ، ٦٨ (٤) غافر ٥٢

الأوضح فى معنى هذه الآية : أن الكافرين يعتذرون ، ولكن لا يقبل اعتذارهم .

قال ابن جرير : لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم ، لأنهم لا يعتذرون إلا بباطل [١] .

وقال الشوكانى : وإنما لم تنفعهم المعذرة ، لأنها معذرة باطلة ، وتعلة داحضة وشبهة زائفة [٢] .

والخلاصة فى الجواب أنه بواحد من

الأول : أن القيامة مواطن ، والنار حالات ، ففى بعضها ينطقون ، ويتكلمون وفى بعضها لا ينطقون ولا يتكلمون .

قال ابن قتيبة : ويبدو أن الاختصام يقع أولا ، ثم يمنعون منه ومن النطق والاعتذار بعد ذلك .

روى عبد الرازق عن معمر عن قتادة : أن رجلا جاء إلى عكرمة فقال : أرأيت قول الله تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ . وقوله : ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ فقال : إنها مواقف ، فأما موقف منها فتكلموا ، واختصموا ، ثم ختم الله على أفواههم ، فتكلمت أيديهم وأرجلهم فحينئذ لا يتكلمون [٣] .

الثانى : أنهم ينطقون بما لا فائدة لهم فيه ، وما لا فائدة فيه فى حكم العدم فهم يتكلمون ، ولأن كلامهم غير مجد اعتبر كلا كلام .

---

(١) الطبرى ٢٤/٥٢

(٢) فتح القدير ٤/٤٩٦

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٦٦

سورة ق (١)

أبصار الكفار يوم القيامة

بين الله تعالى أن الإنسان عامة أو الكافر خاصة يخاطب يوم القيامة بأنه كان فى الدنيا فى غفلة عن اليوم الآخر ، والجزاء فيه ، وأنه يرفع عنه الغطاء فى الآخرة ، فيصير بصره حديدا ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾[١]

فقد فهم البعض أن المراد بالبصر هنا : بصر العين ، وبناء عليه فإن الآية تتعارض مع آية أخرى تخبر عن الكفار بأنهم عندما يعرضون على النار ينظرون إليها من طرف خفى وهى قوله تعالى :

﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى ﴾[٢]

ومعناها باختصار : وتراهم أيها المخاطب يعرضون على النار متضائلين صاغرين مما يلحقهم من الذل والهوان يسارقون النظر خوفا منها وفزعا ، كما ينظر من قدم ليقتل بالسيف ، فإنه لا يقدر أن ينظر إليه بملء عينه ، قال ابن عباس : ينظرون بطرف ذابل ذليل ، وقال قتادة والسدى يسارقون النظر من شدة الخوف[٣]

---

(١) ق ٢٢

(٢) الشورى ٤٥

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازى ١٧٨/٢٧

وليس بين الآيتين تعارض

فآية الشورى تتحدث عن نظر الكفار إلى النار والعذاب فيها مسارقة فهو بصر بالعين ، وآية ق تتحدث عن البصر الذى هو بصر القلب أى العلم والمعرفة والاستيقان باليوم الآخر والجزاء فيه .

قال ابن كثير : فبصرك اليوم قوى ، لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصرا حتى الكفار فى الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة لكن لا ينفعهم ذلك قال الله تعالى :

﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾ (١)

وقال عز وجل ﴿ (٢) ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾ (٣)

وقد ذكر ما يفيد هذا — باختصار — بدر الدين الزركشى : ونقل عن بعض العلماء ما يؤيده فقال : قال قطرب : « فبصرك » أى علمك ومعرفتك بها قوية من قولهم بصر بكذا وكذا ، وليس المراد رؤية العين ، قال الفارسى : ويدل على ذلك قوله :

﴿ فكشفنا عنك غطاءك ﴾ وصف البصر بالحدة (٤) .

---

(١) مريم ٣٨

(٢) السجدة ١٢

(٣) تفسير ابن كثير ٥/٢٢٤

(٤) البرهان فى علوم القرآن ٢/٦١

سورة ق (٢)

خلق السموات والأرض فى ستة أيام

يخبرنا الحق سبحانه أنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام فى قوله :

« ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام »[١]

مع أن آيات سورة فصلت يفهم منها أن خلق السموات والأرض وما بينهما كان فى ثمانيه أيام ، وفى هذا تعارض ، والآيات هى .

﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها والارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا آتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين ﴾[٢]

---

(١) ق ٣٨

(٢) فصلت ٩ — ١٢

معنى آيات سورة فصلت : الاستفهام فى « أئنكم » للتوبيخ والتعجب ، أى كيف تكفرون بالله ، وهو الإله العلى الشأن ، القادر على كل شىء ، خالق الارض فى يومين ، وتجعلون له شركاء وأمثالا تعبدونها معه ؟ ذلك الخالق المبدع هو رب العالمين كلهم ، فكيف يجوز جعل الأصنام الخسيسة شركاء له فى الإلهية والمعبودية ، وجعل فى الأرض جبالا ثوابت لئلا تميد←

والجواب

أن خلق السموات والأرض وما بينهما كان فى ستة أيام كما ذكرت آية « ق » وغيرها من الآيات .

←بالبشر، وأكثر خيرها بما جعل فيها من المياه، والزروع والضروع ، وقدر أرزاق أهلها ، ومعاشهم . قال مجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها فى تمام أربعة أيام كاملة مستوية ، بلا زيادة ولا نقصان (الكشاف ١٤٧/٤)

للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها ، ثم عمد إلى خلق السماء ، وقصد تسويتها وهى بهيئة الدخان .

قال ابن كثير : والدخان بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض . (تفسير ابن كثير ٧/٤)

فقال لها وللأرض : استجيبا لأمرى طائعتين أو مكرهتين : قالت السموات والأرض : أتينا أمرك طائعين .

قال الزمخشرى : وهذا على التمثيل أى أنه تعالى أراد تكوينهما ، فلم يمتنعا عليه ، وكانتا فى ذلك المأمور المطيع ، إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع ، والغرض : تصوير أثر قدرته فى المقدورات من غير أن يكون هناك خطاب وجواب ، ومثله قول القائل : قال الحائط للمسمار لم تشقنى ؟ قال : سل من يدقنى . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال الله تعالى للسماء أطلعى شمسك وقمرك ونجومك ، وقال للأرض شققى أنهارك ، وأخرجى شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين ، قالتا أتينا أمرك طائعين . (تفسير القرطبى ٣٤٣/١٥) واختاره ابن جرير .

فصنعهن وأبدع خلقهن سبع سموات فى وقت مقدر بيومين ، فتم خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ولو شاء لخلقهن فى لمح البصر ، ولكن أراد أن يعلم خلقه الحلم والأناة .

وأن الفهم الصحيح لآيات سورة فصلت يتفق وما ذكرته آية « ق » فان المراد بقوله « وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام » فى تتمة أربعة أيام .

خلق الأرض فى يومين ، وجعل الرواسى فيها والبركة وتقدير الأقوات فى يومين ، فيكون مجموع الأيام التى خلقت فيها الأرض ، وما يتعلق بها أربعة أيام ، وقضى الله السموات السبع فى يومين ، وبذا يكون المجموع ستة . فلا تعارض .

قال بدر الدين الزركشى :

والجواب : أن المراد بقوله « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين »

إلى قوله « وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام » مع اليومين المتقدمين، ولم يرد بذكر الأربعة غير ما تقدم ذكره ، وهذا كما يقول الفصيح : سرت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام ، وسرت إلى الكوفة فى ثلاثة عشر يوما ، ولا يريد سوى العشرة ، بل يريد مع العشرة ثلاثة ، ثم قال تعالى « فقضاهن سبع سموات فى يومين » وأراد سوى الأربعة ، وذلك لا مخالفة فيه ، لأن المجموع يكون ستة [1]

خلق الأرض قبل السماء ، ودحيها بعدها

يدل قوله تعالى ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى

---

(١) البرهان ٢/٦٣

إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾[١] أن خلق الأرض وما فيها كان قبل قبل خلق السماء .

بينما يفهم من الآيات ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها ﴾[٢] أن دحى الأرض كان بعد السماء ، ولا تنافى بينهما .

فإن الآية الأولى تدل على أن خلق الأرض كان قبل خلق السماء ، وهذا صحيح ، لكن الأرض حين خلقت لم تكن مدحوة ، ثم خلقت السماء بعد الأرض ، ثم دحيت الأرض بعد خلق السماء .

---

(١) البقرة ٢٩

(٢) النازعات ٢٧ — ٣٠

سورة ق (٢)

الله تعالى منزه عن التعب والإعياء

قال الله تعالى ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾[١]

واللغوب – المنفى عن الله تعالى – هو التعب والنصب والإعياء

فالآية تفيد أن الله تعالى لا يتعب من خلق مخلوقاته .

مع أن قوله تعالى ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾[٢]

قد يفهم منه : أن البدء فيه صعوبة على الله تعالى – حيث كان العود أهون عليه من البدء – وما فيه صعوبة يسكون فيه التعب .

والتوفيق بين الآيتين

بأن تبقى الآية الأولى على أصل معناها ، وأن الله تعالى لا يتعب من خلق شىء ، وهى رد على اليهود فى زعمهم الباطل أن الله تعالى تعب من خلق السموات والأرض فى الستة أيام ، واستراح فى اليوم السابع – يوم السبت –

قال ابن كثير :

فى الآية تقرير المعاد ، لأن من قدر على خلق السموات والأرض ، ولم يعى بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى ، وقال قتادة:

---

(١) ق ٣٨ (٢) الروم ٢٧

قالت اليهود — عليهن لعائن الله — خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع ، وهو يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه « وما مسنا من لغوب » من إعياء ولا تعب ولا نصب كما قال تعالى فى الآية الأخرى « أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير »[١]

وكما قال عز وجل « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس »[٢] وقال تعالى ﴿[٣] أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ﴾[٤]

وأما قوله « وهو أهون عليه » فمعناه :

هين عليه لا يستصعبه ، ولا شىء فى قدرته تعالى : بعضه أهون من بعض بل كل الأشياء مستوية يوجدها بقوله كن . فتكون .

قال أبو عبيد : من جعل « أهون » عبارة عن تفضيل شىء على شىء فقوله مردود بقوله تعالى « وكان ذلك على الله يسيرا »[٥] وبقوله « ولا يئوده حفظهما »[٦]

والعرب تحمل أفعل على فاعل كثيرا كما فى قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

أى عزيزة طويلة .

---

(١) الأحقاب ٣٣ (٢) غافر ٥٧

(٣) النازعات ٢٧ (٤) تفسير ابن كثير ٤/٢٢٩

(٥) الأحزاب ١٩ (٦) البقرة ٢٥٥

وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى لست بواحد .

وقرأ عبدالله بن مسعود « وهو عليه هين »

أو : أهون عليه بالنسبة إلى قدرتكم ، وعلى ما يقوله بعضكم لبعض

قال بعض المفسرين : خاطب الله العباد بما يعقلون ، فإذا كانت الإعادة أسهل من الإبتداء فى تقديركم وحكمكم ، فإن من قدر على الإنشاء كان البعث أهون عليه حسب منطقكم وأصولكم .

وقيل : الضمير فى « عليه » للخلق أى وهو أهون على الخلق ، لأنه يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ، ويقال لهم كونوا فيكونوا ، فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة إلى آخر النشأة[1]

والأول أرجح ، وعلى أى منها فلا تعارض

---

(١) فتح القدير ٤/٢١

سورة الأعراف (١)

سؤال الكفار يوم القيامة توبيخ الاستعلام

تدل آيات متعددة فى القرآن الكريم على أن الناس يسألون يوم القيامة وتفيد آيات أخرى عدم السؤال ، ويظن من أول وهلة وقوع التعارض بين هذه الآيات ، والحقيقة أنه لا تعارض .

أما الآيات الدالة على السؤال فهى :

قوله تعالى « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين »[١]

أى لنسألن الأقوام الذين أرسل إليهم عما أجابوا به رسلهم عندما دعوهم إلى الإيمان ، ولنسألن الرسل الذين بعثهم الله عما أجاب به أممهم عليهم ومن أطاع منهم ومن عصى .

وقوله تعالى « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين »[٢]

أى : ويوم يناديهم فيقول : ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالتى « فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون » أى خفيت عليهم الحجج حتى صاروا كالعمى الذين لا يهتدون ، فهم لا يسأل بعضهم بعضاً .

وقوله تعالى « فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون »[٣]

حكى ابن كثير عن أبى العالية فى هذه الآية قال : يسأل العباد كلهم يوم القيامة عن خلتين : عما يعبدون ، وعما ذا أجابوا المرسلين .

---

(١) الأعراف ٦ (٢) القصص ٦٥

(٣) الحجر الآيتان ٩٢ ، ٩٣

وقال ابن عيينة : عن عملك ، وعن مالك .

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعه فلا ألفينك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك (١)

وقوله تعالى « وقفوهم إنهم مسئولون »(٢)

أى : إحبسوهم عند الصراط ، لأنهم سيسألون عن جميع أقوالهم وأفعالهم .

ثم يقال لهم : على سبيل التقريع والتوبيخ « مالكم لا تناصرون » مالكم لا ينصر بعضكم بعضا ، وأنتم هنا جميعا ، وكلكم فى حاجة إلى الناصر والمعين « بل هم اليوم مستسلمون » أى : بل هم اليوم أذلاء منقادون ، عاجزون عن الانتصار ، سواء منهم العابدون والمعبودون(٣)

وأما الآيات الدالة على عدم السؤال فهى قوله تعالى :

« ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون »

قال قتادة : لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار .

أو : لا يسألون عن ذنوبهم ، لأنه لا حاجة إلى أن يسألهم الله عن

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٥٩

(٢) الصافات ٢٤

(٣) تفسير القرطبى ١٥/٧٤

كيفية ذنوبهم وكميتها ، لأنه عالم بكل شيء ، ولا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤالهم ، بل متى حق عليهم العذاب أهلكهم بغتة .

وقوله تعالى « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان »[١]

أى . نفى ذلك اليوم الرهيب — يوم تنشق السماء — لا يسأل أحد من المذنبين من الإنس والجن عن ذنبه ، لأن المذنب علامات تدل على ذنبه كاسوداد الوجوه ، وزرقة العيون .

قال الفخر الرازى : لا يسأل أحد عن ذنبه ، فلا يقال له : أنت المذنب أو غيرك ؟ ولا يقال : من المذنب منكم ، بل يعرفون بسواد وجوههم وغيره[٢] .

والتوفيق

بين الآيات الدالة على أن الله تعالى يسأل الناس يوم القيامة والآيات الدالة على عدم السؤال بواحد من الوجوه الآتية :

الأول : أن المثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع ، والمنفى هو سؤال الاستعلام وسؤال الله تعالى للرسل ﴿ ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب[٣] ﴾ .

لتوبيخ الذين كذبوهم ، ومثل ذلك سؤال الموءودة عن الذنب الذى قتلت به فى قوله تعالى: ﴿ وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت[٤] ﴾ به فهو لتوبيخ قاتلها .

ويشير لهذا الوجه ما حكاه ابن كثير عن على بن أبى طلحة عن ابن

---

(١) الرحمن ٣٩ (٢) التفسير الكبير ٢٩/١١٨

(٣) المائدة ١٠٩ (٤) التكوير ٨ ، ٩

عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون ﴾ ثم قال : ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ قال : لا يسألهم هل عملتم كذا ، لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول : لم عملتم كذا وكذا[1] .

الثانى : أن إثبات السؤال محمول على السؤال عن التوحيد ، وتصديق الرسل وعدم السؤال محمول على شرائع الدين وفروعه .

الثالث : أن فى القيامة مواقف متعددة ، ففى بعضها يسألون ، وفى بعضها لا يسألون .

وقد ذكر بدر الدين الزركشى الوجهين الثانى والثالث فقال : قال الحليمى : فتحمل (الآيات الأولى) على السؤال عن التوحيد ، وتصديق الرسل ، والثانية على ما يستلزم الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه .

وحمله غيره على اختلاف الأماكن ، لأن فى القيامة مواقف كثيرة ، فموضع يسأل ويناقش ، وموضع آخر يرحم ويلطف به ، وموضع آخر يعنف ويوبخ ، وهم الكفار — وموضع آخر لا يعنف ، وهم المؤمنون .

وفى التوفيق قوله تعالى ﴿ ولا يكلمهم الله يوم القيامة[2] ﴾ وبين قوله سبحانه ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون ﴾ ذكر : أن المنفى كلام التلطف والإكرام ، والمثبت سؤال التوبيخ والإهانة فلا تنافى[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٥٩ (٢) البقرة ١٧٤

(٣) البرهان فى علوم القرآن ٢/٥٥

سورة الأعراف (٢) :

سؤال إبليس عما منعه من السجود

أمر الله تعالى الملائكة وبينهم إبليس بالسجود ، فسأله الله تعالى عما منعه من السجود ، وذلك فى قوله سبحانه :

﴿ قال مامنعك أن لا تسجد إذ أمرتك[١] ﴾ .

وهنا إشكال طرأ من الجمع بين « منعك » و « لا » النافية لأن المناسب فى الظاهر لقوله « منعك » هو حذف « لا » فيقول ما منعك أن تسجد ، دون ألا تسجد ؟

وقد أجيب عن هذا بأجوبة :

منها : أن «لا» صلة ، أى زائدة للتوكيد بدليل قوله تعالى فى سورة « ص » ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ ؟

كما زيدت فى قوله تعالى ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون[٢] ﴾ أى يؤمنون وكما زيدت فى قوله تعالى ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون[٣] ﴾ أى يرجعون .

ومنها : أن « منع » مضمن معنى فعل آخر يتناسب مع «لا» قيل: إنه قال . والتقدير : من قال لك أن لا تسجد .

---

(١) الأعراف ١٢
(٢) الأنعام ١٠٩
(٣) الأنبياء ٩٥

وقيل : منع . بمعنى دعا أى : مادعاك إلى أن لاتسجد [١] .

وهذا الجواب الأخير قد اختساره ابن جرير ، وقواه واستحسنه ابن كثير فقال :

وهذا القول قوى حسن [٢] .

---

(١) فتح القدير ٢/١٩١

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٠٣

سورة الأعراف (٣) :

أمر الله تعالى عباده بالطاعة

من المعلوم لكل عاقل عارف بربه أن الله عز وجل لا يطلب من عباده أن يفعلوا الفاحش القبيح من الذنوب قال تعالى : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون[١] ﴾ .

وفى معناها يقول الشوكانى : قال أكثر المفسرين : هى طواف المشركين بالبيت عراة . وقيل : هى الشرك ، والظاهر أنها تصدق على ما هو أعم من الأمرين جميعاً .

والمعنى : أنهم إذا فعلوا ذنباً قبيحاً مبالغاً فى القبح اعتذروا عن ذلك بعذرين . الأول : أنهم فعلوا ذلك اقتداء بآبائهم لما وجدوهم مستمرين على فعل تلك الفاحشة ، والثانى : أنهم مأمورون بذلك من جهة الله سبحانه .

وكلا العذرين فى غاية البطلان والفساد ، لأن وجود آبائهم على القبح لا يسوغ لهم فعله ، والأمر من الله سبحانه لهم لم يكن بالفحشاء ، بل أمرهم باتباع الأنبياء ، والعمل بالكتب المنزلة ، ونهاهم عن مخالفتهما ، ومما نهاهم عنه فعل الفواحش .

ولهذا رد الله سبحانه عليهم بأن أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم : إن الله لا يأمر بالفحشاء ، فكيف تدعون ذلك عليه سبحانه ، ثم أنكر عليهم ما أضافوه إليه فقال : ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون[٢] ﴾ .

---

(١) الأعراف ٢٨ (٢) فتح القدير ١٩٨/٢

ونجد آية أخرى ربما توهم من ظاهرها الأمر بالفسق والمعاصي وهي قوله تعالى ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا[1] ﴾ فيكون بين الآيتين اختلاف .

ولكن بفهم الآية الثانية (آية الإسراء) فهما صحيحاً يتبين موافقتها للآية الأولى (آية الأعراف) وأن ليس بينهما اختلاف وذلك بواحد من ثلاثة أوجه .

الأول : أن المراد بالأمر في ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ ماهو نقيض النهي ، والمأمور به الطاعة والخير ، والمعنى : وإذا أردنا هلاك قوم من الأقوام أمرنا المتنعمين منهم والقادة والرؤساء بالطاعة على ألسنة رسلنا ، فعصوا أمرنا ، وخرجوا عن طاعتنا ، وفسقوا وفجروا ، فوجب عليهم العذاب فأهلكناهم إهلاكا شديداً وقال صاحب الكشاف : عند تفسير هذه الاية .

معناه : أمرناهم بالفسق ففسقوا ، وأطال الكلام في تقرير هذا ، وتبعه المتأثرون به في التفسير ، وحجته : أن حذف مالا دليل عليه غير جائز .

وما ذكره ومن تابعه معارض بمثل قول القائل : أمرته فعصاني . فإن كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا أن المأمور به شيء غير المعصية ، لأن المعصية منافية للأمر ، مناقضة له ، فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به ، فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به ويناقضه ، وعلى

---

(١) الإسراء ١٦

هذا فالسياق يدل على أن المحذوف أمرنا مترفيها بالطاعة ففسقوا .

الثانى: أن الأمر فى قوله ﴿أمرنا مترفيها﴾ أمر قدرى، لا أمر شرعى، كالأمر فى قوله تعالى ﴿ أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً ﴾[1] وفى قوله ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون [2] ﴾ أى : أن الله تعالى سخرهم إلى فعل الفواحش ، وقدر عليهم الفسق فاستحقوا العذاب .

والأمر فى آية الأعراف ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ أمر شرعى دينى فلا تعارض .

الثالث : أن معنى ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ أكثرنا فساقها ، إذ يقال : أمر بنو فلان بفتح الميم وبكسرها بمعنى كثروا .

روى البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : كنا نقول للحى إذا كثروا فى الجاهلية أمِر بنو فلان . وقال : حدثنا الحميدى حدثنا سفيان وقال : أمر، بفتح الميم ومنه حديث «خير المال مهرة مأمورة...» أى كثيرة النتاج . أخرجه أحمد .

وقد قال أبو سفيان فى قصة هرقل : لقد أمر أمر ابن أبى كبشة : أى عظم .

قرىء : أمرنا . بتشديد الميم أى جعلناهم أمراء مسلطين .

وقرىء : آمرنا . بالمد والتخفيف بمعنى : أكثرنا جبابرتها وأمراءها

وعلى أى وجه من هذه الوجوه فلا تعارض بين هذه الآية وآية الأعراف

---

(١) يونس ٢٤ (٢) يس ٨٢

(٣) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٨/٢٩٤

سورة الأعراف (٤)

النسيان

ورد لفظ النسيان فى آيات متعددة فى القرآن الكريم منسوبا إلى الناس وهذا له معنى معين ، وبعضه مذموم ، وبعضه الآخر يعذر فيه الإنسان فأما معناه : فهو كما قال الراغب الأصفهانى : ترك الإنسان ضبط ما استودع إما لضعف قلبه ، وإما عن غفلة ، وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره يقال : نسيته نسياناً . قال ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ﴾ وغيرها من الآيات . وفى بيان المذموم منه ، وغير المذموم يقول :

وكل نسيان من الإنسان ذمه الله تعالى به فهو ما كان أصله عن تعمد وما عذر فيه نحو ماروى عن النبي ﷺ « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان» فهو مالم يكن سببه منه ، وقوله ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم ﴾ هو ما كان سببه عن تعمدهم ، وتركه على طريق الإهانة[1] .

وورد لفظ النسيان فى آيات من القرآن الكريم منفيا عن الله تعالى كما فى قوله سبحانه ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾[2] .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٩١

(٢) طه ٤٢

وفى قوله تعالى ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً﴾[١] .

وورد فى آيات أخرى مثبتاً لله عز وجل كما فى قوله تعالى ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾[٢] .

وقوله تعالى ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم﴾[٣]

وقوله تعالى عن المنافقين ﴿نسوا الله فنسيهم﴾[٤] .

فتوهم أن بين آيات نفيه عن الله تعالى ، وآيات إثباته له خلافاً .

ويدفع توهم الخلاف :

ببيان أن الله تعالى لا يذهب شيء عن علمه، ولا ينسى بعد ما علم كما ذكرت الآيات التى تنفى النسيان عن الله تعالى .

وأما النسيان المنسوب إلى الله تعالى فى بعض الآيات فهو بمعنى تركه إياهم فى العذاب مجازاة لما تركوه .

فمعنى ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ كما قال أبو السعود .

فاليوم نفعل بهم ما يفعل الناس بالمنسى من عدم الاعتداد بهم ، وتركهم فى النار تركا كلياً ، كما نسوا لقاء يومهم هذا حيث لم يخطروه ببالهم ، ولم يعتدوا له[٥] .

---

(١) مريم ٦٤ (٢) الأعراف ٥١

(٣) السجدة ١٤ (٤) التوبة ٦٧

(٥) تفسير أبو السعود ١٦٩/٢

ومعنى ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم ﴾ .

فذوقوا العذاب بما تركتم الإيمان بيومكم هذا ، والعمل له ، إنا تركناكم فى العذاب كالمنسى .

ومعنى ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ أغفلوا ذكر الله ، فتركهم من رحمته وفضله وخذلهم والتعبير عنه بالنسيان للمشا كلة[1] .

---

(١) تفسير أبو السعود ٢/٢٨١

سورة الأعراف (٥)

فرعون وأصنامه

ما يظن من تعارض بين قول الله تعالى ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ... ﴾[١] .

وبين قوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿ أنا ربكم الأعلى﴾[٢] .

مدفوع :

بأن فرعون صنع لقومه أصناماً ، وأمرهم بأن يعبدوها تقرباً إليه ، وأنه هو الرب الأعلى ، الذى هو فوق هذه الآلهة .

قال السدى : كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناما ، وكان يأمرهم بعبادتها وقال لهم : أنا ربكم ورب هذه الأصنام، وذلك قوله تعالى ﴿أنا ربكم الأعلى ﴾ والأقرب أن يقال : إن فرعون كان دهريا منكراً لوجود الصانع ، فكان يقول مدبر هذا العالم السفلى هو الكواكب ، فاتخذ أصناما على صورة الكواكب وكان يعبدها ويأمر بعبادتها ، وكان يقول فى نفسه إنه هو المطاع والمخدوم فى الأرض فلهذا قال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ .

---

(١) الأعراف ١٢٧ (٢) النازعات ٢٤

الذين لهم الإنذار والذين لا يؤمنون والذين لهم الهدى

ظاهر قول الله تعالى ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾[١] .

أن الإنذار خاص بمن اتصفوا باتباع الذكر ، وخشية الله بالغيب ونظيرها قول الله تعالى ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾[٢] .

بينما دلت آيات أخرى على عموم الإنذار ، وأنه لا يختص به قوم دون قوم ، بل يوجه للجميع منها قوله تعالى ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ﴾[٣] وقوله تعالى ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[٤] وغيرهما من الآيات

ولا تنافى بين هذه الآيات .

فالإنذار عام للجميع ، إذ أن نبينا صلى الله عليه وسلم مرسل للناس أجمعين ورسول رب العالمين للبشر قاطبة « كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة » وهو منذر لكل من بعث إليهم .

وإنما خص فى بعض الآيات إنذاره بالمؤمنين ، من حيث إنهم المنتفعون به دون غيرهم كما قال تعالى ﴿ وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين ﴾

أما الأشقياء ، الذين استحبوا العمى على الهدى ، فختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، فهم لا ينتفعون بالإنذار ، ويصير الإنذار وعدمه بالنسبة إليهم سواء كما قال تعالى :

---

(١) يس ١١ (٢) النازعات ٤٥
(٣) الليل ١٤ (٤) الفرقان ١

﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ (١) .

وبمناسبة هاتين الآيتين نبين أيضاً أنه لا تعارض بين الآية الأولى منها الدالة على عدم إيمان الكفار ، وبين مايدل على أن بعض الكفار يؤمنون بالله ورسوله من آيات مثل قوله تعالى ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف ﴾ (٢)

وقوله تعالى ﴿ كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم ﴾ (٣) .

فإن آية البقرة ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ من العام المخصوص ، إذ هى فى خصوص الذين سبق فى علم الله تعالى شقوتهم وحقت عليهم كلمة الله بعدم إيمانهم — لاختيارهم ذلك كما قال تعالى ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (٤)

ويدل لهذا التخصيص الآية التالية وهى ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ .

وقيل : إن المعنى : لا يؤمنون مادام الختم على قلوبهم وأسماعهم ، والغشاوة على أبصارهم ، فان رفع الله ذلك عنهم تفضلا منه وإحسانا آمنوا .

كذلك لا تناقض بين الآية الثانية ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى

---

(١) البقرة ٦ ، ٧ (٢) الأنفال ٣٨

(٣) النساء ٩٤ (٤) يونس ٩٦ ، ٩٧

سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ الدالة على أنهم مجبورون على الكفر ، لأن من ختم على قلبه وعلى سمعه وجعلت الغشاوة على بصره لايمكنه الإيمان .

وبين مايدل على أن كفر الكافرين حاصل باختيارهم وإرادتهم من آيات مثل قوله تعالى « فاستحبوا العمى على الهدى »[١] .

وقوله تعالى ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ﴾ .[٢]

وقوله تعالى ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[٣] .

لأن الكافرين هم الذين اختاروا الكفر وتكذيب الرسل ، ومعاندة الحق ، والضلالة عموما ، فعاقبهم الله تعالى على ذلك بالختم على قلوبهم وعلى سمعهم ، والغشاوة على أبصارهم وخذلهم ، ولم يوفقهم للايمان جزاء لهم على سوء اختيارهم كما قال تعالى فى شأن المنافقين ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾[٤]

وكما قال تعالى ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾[٥]

وكما قال تعالى ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾[٦] فظهر عدم التعارض .

---

(١) فصلت ١٧ (٢) البقرة ١٧٥
(٣) الكهف ٣٠ (٤) البقرة ١٠
(٥) النساء ١٥٥ (٦) الصف ٥

ومما له صلة بهذا أيضا موضوع هدى القرآن ، فقد جاء من الآيات مايدل على أنه خاص بالمتقين مثل قوله تعالى ﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ﴾ (١) ، كما جاء من الآيات مايدل على عموم هداه لجميع الناس مثل قوله تعالى ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ﴾ (٢) فربما يتوهم التعارض بين الآيتين .

والحقيقة : أنه لاتعارض ، فهو هدى للمتقين باعتبار ، وهدى للناس باعتبار آخر وبيان ذلك :

أن الهدى له معنيان : أحدهما عام ، والثانى خاص .

والهدى العام بمعنى البيان والإرشاد : بيان الحق ، والإرشاد إلى الطريق المستقيم سواء سلكها المبين له أم لا ، ومن هذا المعنى قوله تعالى « وأما ثمود فهديناهم » (٣) أى بينا لهم طريق الحق على لسان صالح عليه السلام ، وهم لم يسلكوها بدليل قوله بعد « فاستحبوا العمى على الهدى » .

وقوله تعالى « إنا هديناه السبيل » (٤) أى بينا له طريق الخير وطريق الشر بدليل قوله بعد « إما شاكرا وإما كفورا » فالهدى فى قوله « هدى للناس » بمعناه العام فهو بيان للناس والهدى الخاص هو : التوفيق للإيمان والطاعة ، فالقرآن هدى بمعنى أنه اشتمل على مايؤدى إلى اختيار الإيمان والطاعة ، فعرف من هذا كونه هدى خاصا بالمتقين .

---

(١) البقرة ٢ (٢) البقرة ١٨٥
(٣) فصلت ١٧ (٤) الإنسان ٣

ومنه بهذا المعنى قوله تعالى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام »[١] وبهذا يرتفع الإشكال أيضا بين مايفيد أن نبينا صلى الله عليه وسلم يهدى إلى الصراط المستقيم مثل قوله تعالى « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم »[٢] وبين مايفيد أنه لايهدى من أحب هدايته مثل قوله تعالى « إنك لاتهدى من أحببت »[٣] فالآية الأولى (آية الشورى) الهدى المثبت فيها هو الهدى العام الذي معناه إبانة الطريق المستقيم والآية الثانية (آية القصص) الهدى المنفى فيها هو الهدى الخاص فان التوفيق بيد الله وحده لايملكه الرسول صلى الله عليه وسلم ولاغيره من البشر .

فزال بهذا التعارض .

---

(١) الأنعام ١٢٥

(٢) الشورى ٥٢ (٣) القصص ٥٦

سورة مريم :

ورود النـــار

تفيد الآية الكريمة « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضياً » أن جميع الناس مؤمنهم وكافرهم يردون النار ، وهذا الورود أمر محتوم قد قضى الله تعالى أنه لابد من وقوعه .

والآية التالية لها وهى « ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً »[١] تبين أن الذين اتقوا عن الشرك وهم المؤمنون ينجيهم الله سبحانه من النار وأما الذين ظلموا أنفسهم بالكفر فيتركهم الله فيها .

وقد دل قوله تعالى « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون »[٢] .

على أن الذين سبقت لهم من الله الحسنى - وهم جميع المؤمنين - على القول الأرجح مبعدون عن جهنم لا يسمعون صوتها الذى يحس ، وحركة تلهبها . وهم مقيمون فى النعيم الذى تمنته نفوسهم وطلبوه .

فتوهم البعض أن بين الآيتين تعارضا .

وبالفهم السليم للآيتين يندفع هذا التوهم وذلك بواحد من الوجوه الآتية :

الأول : أن الورود فى آية مريم معناه الدخول ، وهذا ما عليه جمهور أهل السنة ويؤيده قول الله تعالى عن فرعون « وما أمر فرعون

---

(١) مريم ٧١ ، ٧٢

(٢) الأنبياء ١٠١ ، ١٠٣

برشيد. يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود »[١]

وقوله تعالى « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون »[٢]

وقوله تعالى « ثم ننجى الذين اتقوا » إذ النجاة إنما تكون بعد الدخول .

وما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبى أمية قال : اختلفنا فى الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن . وقال بعضنا : يدخلونها جميعا . ثم ينجى الله الذين اتقوا ، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له : إنا اختلفنا فى ذلك الورود ، فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا يدخلونها جميعا ، فأهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال : صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول « الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمنين برداً وسلاما ، كما كانت على إبراهيم حتى أن للنار ، أو قال : لجهنم ضجيجا من بردهم ، « ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا »[٣] .

وقد أخرجه أيضا عبد بن حميد ، والحكيم الترمذى ، وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى جميعا عن أبى سعيد .

ويكون معنى « أولئك عنها مبعدون » عن عذاب النار وألمها .

---

(١) هود ٩٧ ، ٩٨ (٢) الأنبياء ٩٨ ، ٩٩

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/٣٢٨ ، ٣٢٩

الثانى . الورود فى آية مريم بمعنى المرور على الصراط ،فان الصراط ممدود على جهنم ، يمر عليه جميع الناس فينجو الذين اتقوا ويقع الظالمون فى النار .

وروى عن ابن عباس وابن مسعود وكعب الأحبار والسدى وقاله الحسن أيضا واحتجوا بقوله تعالى « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » قالوا لا يدخل النار من ضمن الله أن يباعده منها

وأجاب الاولون بأن معنى قوله « أولئك عنها مبعدون » أنهم مبعدون عن العذاب فيها ، والاحتراق بها فمن دخلها وهو لا يشعر بها ولا يحس منها وجعا ولا ألما فهو مبعد منها .

والثالث قال جماعة : الورود الاشراف والاطلاع والقرب وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم ، فيرونها وينظرون إليها فى حالة الحساب ثم ينجى الذين اتقوا مما نظروا إليه ، ويصار بهم إلى الجنة ، ويذر الظالمين أى يأمر بهم إلى النار . (١)

واستدل هؤلاء القائلون بأن الورود القرب منها من غير دخول بقوله تعالى ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ (٢) فإن المراد : أشرف عليه ، لأنه دخل فيه .

ومنه قول زهير :

فلما وردن الماء زرقا حمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم

الرابع : أن الخطاب فى قوله ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ للكفار ،

---

(١) تفسير الجمل ٣/٧٤ (٢) القصص ٢٣

وقد روى هذا عن ابن عباس ، وأنه كان يقرأها ﴿ وإن منهم إلا واردها ﴾ لمناسبة الآيات التي قبلها فإنها في الكفار وهي قوله ﴿ فوربك لنحشرنهم ﴾ ﴿ ثم لنحضرنهم ﴾ ﴿ أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ ﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ﴾ ﴿ وإن منهم إلا واردها ﴾ .

وكذلك قرأ عكرمة وجماعة ، لكن الأكثرون على أن المخاطب بها الناس كلهم كما تقدم وأولى هذه الأقوال بالقول الأول ، ثم الثاني ، أما الثالث والرابع ففيهما ضعف .

قال الشوكاني : ولا يخفى أن القول بأن الورود هو المرور على الصراط ، أو الورود على جهنم وهي خامدة فيه جمع بين الأدلة من الكتاب والسنة فينبغي حمل هذه الآية (آية مريم) على ذلك [1] .

---

(١) فتح القدير ٣/٣٤٤

سورة طه :

إخفاء الساعة وعدم تعيين وقتها

قال تعالى ﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ [١] يتوهم من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يخف الساعة بالفعل ، ولكنه قارب أن يخفيها ، لأن كاد فعل مقاربة .

وقد جاء التصريح بأنه تعالى أخفاها فى قوله سبحانه ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة .. ﴾ [٢]

وقوله سبحانه ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها ﴾ [٣] .

والساعة من الغيب الذى عنده تعالى وحده مفاتحه ، وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أن مفاتح الغيب هى الخمس المذكورة فى قوله تعالى ﴿ إن الله عنده علم الساعة ... ﴾ [٤]

والجواب بواحد من الوجوه التالية

الأول : إن كاد من الله تعالى تدل على الوجوب ، كما دلت عليه عسى فى قوله سبحانه .

---

(١) طه ١٥ (٢) الأعراف ١٨٧

(٣) الآيات ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤

(٤) لقمان ٣٤

﴿ فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا ﴾ [١] أى هو قريب وعلى هذا فمعنى ﴿ أكاد أخفيها ﴾ أنا أخفيها .

الثانى : أن كاد تأتى بمعنى أراد فمعنى ﴿ أكاد أخفيها ﴾ أريد أن أخفيها ومن ذلك قول الشاعر :

كادت وكدت وتلك خير إرادة لو عاد من لهو الصبابة مامضى

الثالث : ذكر البيضاوى من معانيها : أقرب أن أخفيها ،فلا أقول إنها آتية ولولا مافى الإخبار بإتيانها من اللطف ، وقطع الأعذار لما أخبرت به .

وعلق عليه الشهاب بقوله : أقرب أن أخفى ذكرها الإجمالى أى أنه تعالى كاد أن لايذكرها ولو إجمالا ، لكونها أخفى المغيبات ، لكنه ذكرها إجمالا كما فى قوله ﴿ إن الساعة آتية ﴾ لحكمة وهى اللطف بالمؤمنين لحثهم على الأعمال الصالحة .

وذكر محمد الأمين الجكنى الشنقيطى هذا الوجه قائلا : أقرب أن أترك الاخبار عن إتيانها من أصله ، لشدة إخفائى لتعيين وقت إتيانها [٢] .

الرابع : أن كاد صلة ، والمعنى : إن الساعة آتية أخفيها .

---

(١) الإسراء ٥١

(٢) دفع إيهام الاضطراب ١٩٥

ومنه قول الشاعر :

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه فما أن يكاد قرنه يتنفس

أى : فما يتنفس قرنه .

قالوا : ومن هذا القبيل قوله تعالى ﴿ إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ (٣) أى لم يرها .

وقد أجيب بأجوبة أخرى ضعيفة لذا أعرضت عنها .

---

(١) النور ٤٠

سورة طه (٢)

زوال عقدة لسان موسى عليه السلام

سأل موسى عليه السلام ربه أشياء عندما كلفه بدعوة فرعون وقومه إلى الإيمان منها : أن يحل عقدة من لسانه ليفهموا كلامه قال تعالى حاكيا عن موسى ﴿ واحلل عقدة من لسانى . يفقهوا قولى ﴾ (١) .

وقد أتاه الله سؤله قال ﴿ قد أوتيت سؤلك ياموسى ﴾ (٢) فحلت عقدة من لسانه .

مع أن قول فرعون عن موسى عليه السلام الذي حكاه الله تعالى فى سورة الزخرف ﴿ أم أنا خير من هـذا الذى هـو مهين ولايكاد يبين ﴾ (٣) يفيد أن موسى عليه السلام لايبين الكلام فهو إذن لايفقه قـــوله .

والجـــواب

ان موسى عليه السلام إما أن يـكون سأل ربه حل جميع عقـد لسانه ، أو بعضها ، فمن قال : بأنه سأل حل جميع عقدلسانه تمسك بقوله تعالى ﴿ قد أوتيت سؤلك ياموسى ﴾ ويـكون قول فرعون ﴿ ولايكاد يبين ﴾ كذبا وافتراء على موسى عليه السلام وتنقيصا له فى أعين الناس باعتبار ماكان فى لسانه عليه السلام من نوع رتة ، وقد كانت ذهبت عنه (٤)

أو يـكون فرعون قال ماقاله ، لأنه عرف منه تلك العقدة أثناء

---

(١) طه ٢٧ ، ٢٨ (٢) طه ٣٦

(٣) الزخرف ٥٢ (٤) يفسير أبو السعود ٥/٤٦

وجوده عنده، وماثبت عنده أن الآفة زالت وضعف هذا الوجه القرطبي[1]

ومن قال بأنه لم يسأل حل جميعها ، بل حل بعضها الذى يمنع الإفهام استدل بقوله ﴿ يفقهوا قولى ﴾ وبأنه نكرها فقال ﴿ واحلل عقدة من لسانى ﴾ أى عقدة كائنة من عقده .

قال ابن كثير :

وماسأل أن يزول ذلك بالكلية ، بل بحيث يزول العى ، ويحصل منهم مايريد منه ، وهو قدر الحاجة ، ولو سأل الجميع لزال ، ولكن الأنبياء لايسألون إلا بحسب الحاجة ، ولهذا بقيت بقية ، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال ﴿ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ﴾ أى يفصح بالكلام .

وقال الحسن البصرى : ﴿ واحلل عقدة من لسانى ﴾ قال : حل عقدة واحدة ولو سأل أكثر من ذلك أعطى .

وقال ابن عباس : شكا موسى إلى ربه مايتخوف من آل فرعون فى القتيل ، وعقدة لسانه ، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام وسأل ربه أن يعينه بأخيه هرون يكون له رداء ، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه فآتاه سؤله ، فحل عقدة من لسانه .

وقال ابن أبى حاتم : ذكر عن عمرو بن عثمان ، حدثنا بقية عن أرطاة بن المنذر حدثنى بعض أصحاب محمد بن كعب عنه قال : أتاه ذو قرابة له ، فقال له : مابك بأس لولا أنك تلحن فى كلامك، ولست تعرب

---

(١) تفسير القرطبي ٤٦/٤٢٣٢

فى قراءتك ، فقال القرطبي يا ابن أخى : ألست أفهمك إذا حدثتك؟قال نعم . قال : فإن موسى عليه السلام إنما سأل ربه أن يحل عقد من لسانه كى يفقه بقو إسرائيل كلامه ولم يزد عليها [١] .

والخلاصة :

أن موسى عليه السلام يبين الكلام ، ويفقه قوله ؛ ويتصف بالفصاحة يدل على هذا قوله ﴿ وأخى هرون هو أفصح منى لسانا ﴾ [٢] فهو يفيد اشتراكه مع هرون عليهما السلام فى الفصاحة ، فكلاهما فصيح إلا أن هرون أفصح .

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/٢٧٦ ، ٢٧٧ (٢) القصص ٣٤

سورة الإسراء :

المانع للناس من الإيمان

يفيد قول الله تعالى « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا »[١]

إن المانع للناس من الإيمان بالقرآن وبالرسول هو إنكارهم أن يبعث الله تعالى بشراً رسولا .[٢] وأنه ليس هناك مانع من الإيمان غير هذا بمقتضى أسلوب الحصر بينما قول الله تعالى « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا »[٣] .

يفيد أن المانع من الايمان هو أحد أمرين : إرادة أن يأتيهم سنة الأولين من الخسف وغيره - فى الدنيا ، أو إرادة أن يأتيهم العذاب أنواعاً ، فى الآخرة ولا مانع من الإيمان غير واحد منهما بمقتضى أسلوب الحصر وهما غير المانع السابق فى آية الإسراء .

والجواب عن هذا

أن آية الكهف قد أخبر فيها أنه أراد أن يصيبهم أحد الأمرين . ولا شك أن إرادة الله مانعة من وقوع ما ينافى المراد فهذا حصر فى السبب الحقيقى ، لأن الله تعالى هو المانع فى الحقيقة .

وآية الإسراء فى المانع العادى - لجواز أن يزول إنكارهم بعث الرسول

---

(١) الإسراء ٩٤

(٢) وعبر عنه بالقول للإشعار بأنه ليس إلا مجرد قول قالوه بأفواههم

(٣) الكهف ٥٥

من البشر ، ويحل محله الاعتراف والتسليم بذلك فيوجد الإيمان . بخلاف ما أراده الله تعالى فانه لا يتغير فارادة الله مانع حقيقى من الإيمان .

والخلاصة : أن الحصر فى آية الإسراء هو فى المانع العادى ، والحصر فى آية الكهف فى المانع الحقيقى ، فلا تنافى .

وقد أجاب بهذا ابن عبد السلام كما ذكر ذلك صاحب الإتقان[1].

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/٢٩، ٣٠

سورة الإسراء (٢)

حشر الكفار يوم القيامة عميا وبكما وصما

قال الله تعالى « ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً »(١) .

فقوله « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما » صريح فى حشر الكفار فاقدى حواس البصر والنطق والسمع .

مع أن آيات أخرى تفيد أنهم يبصرون ويتكلمون ويسمعون كقوله تعالى « ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا »(٢) وقوله تعالى « وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً . وإذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا . وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبوراً »(٣) .

وقوله تعالى « أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين »(٤) وقوله تعالى « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا

---

(١) الإسراء ٩٧ (٢) الكهف ٥٣

(٣) الفرقان ١١ ، ١٢ ، ١٣

ومعنى « سعيرا » نارا شديدة ، ومعنى « سمعوا لها تغيظا وزفيرا » سمع المكذبون بالساعة صوت غليان جهنم الذى يشبه صوت المتغيظ والزافر ، ومعنى « مقرنين » قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال ، وفى أرجلهم السلاسل ، و « ثبورا » هلاكا أى قالوا واثبوراه

(٤) مريم ٣٨

رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون[١]»

وقبل أن نذكر التوفيق بينهما نقول :

إن حشر الكفار يوم القيامة على وجوههم فيه قولان :

الأول : أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم من قول العرب قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا .

الثانى : أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى هوانه وتعذيبه . وهذا هو الصحيح.

لحديث أنس بن مالك قال : قيل يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال : الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم[٢] .

التوفيق بينهما بوجه من هذه الوجوه

الأول : أن الكفار يوم القيامة يبصرون ويتكلمون ويسمعون وأن حواسهم سليمة مدركة وأما أنهم يحشرون عمياً وبكما وصما فذلك على المجاز أى أنهم لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا ينطقون ما يقبل منهم . ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم لما كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات

---

(١) السجدة ١٢

النكس : قلب الشىء على رأسه و « ناكسوا رءوسهم » أى رءوسهم مائلة إلى أسفل من الذل والندم

(٢) مسند الامام أحمد ٣/١٦٧ وأخرجه البخارى ومسلم

والعبر ولا ينطقون بالحق ، ولا يستمعونه ، فنزل ما يبصرونه وما يقولونه ، وما يسمعونه منزلة العدم ، لعدم الانتفاع به .

الثانى : أن ما أخبرت عنه آية الإسراء من وصفهم بالعمى والبكم والصمم يكون فى أول الأمر أى عند حشرهم وسوقهم من قبورهم إلى موقف الحساب ، وما أخبرت عنه الآيات الأخرى يكون بعد رد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم . فيرون النار ويسمعون زفيرها وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم أنهم ينطقون به .

الثالث : أن قوى الكفار وحواسهم تكون سليمة عندما يحشرون بعد الحساب من الموقف إلى النار ، ثم إذا قيل لهم « اخسأوا فيها ولا تكلمون »[1] صاروا عميا لا يبصرون . صما لا يسمعون بكما لا يتكلمون .

وقد عموا حين دخلوا النار لشدة سوادها ، وانقطع كلامهم حين قيل لهم : اخسأوا فيها ولا تكلمون ، وذهب الزفير والشهيق بسمعهم ، فلم يسمعوا شيئا[2]

« مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا »

المعنى : مرجعهم ومستقرهم ومقامهم جهنم كلما سكن لهبها زدناهم تلهبا ، وفى خبو النار تخفيض لعذاب أهلها فكيف يجمع بينه وبين ما يفيد أن العذاب لا يخفف عنهم كقوله تعالى « والذين كفروا لهم

---

(١) المؤمنون ١٠٨ (٢) تفسير القرطبى ص٣٩٤٩ ط دار الشعب

نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور»[١]

والجواب :

أن المراد بعدم التخفيف أنه لا يتخلل زمان محسوس بين الخبو والتسعير .

وقيل : إن خبوها وسكون التهابها يكون من غير نقصان فى آلامهم ولا تخفيف عنهم من عذابهم .

وقال أبو السعود : فى معنى الآية : كلما سكن لهبها بأن أكلت (النار) لحومهم وجلودهم ، ولم يبق فيهم ما تتعلق به النار وتحرقه زدنادهم توقدا بأن بدلناهم جلوداً غيرها فعادت ملتهبة ومتسعرة.[٢] « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب »[٣]

---

(١) فاطر ٣٦ (٢) تفسير أبو السعود ٣/٢٣٤

(٣) النساء ٥٦

سورة يونس :

زعم الكفار أن الأصنام تشفع لهم عند الله

يزعم الكفار أن الأصنام تشفع لهم يوم القيامة، ولهذا فهم يعبدونهم مع أن أصنامهم لا تضر ولا تنفع ، ومن الجهل والعبث انتظار الشفاعة فى المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر فى الحال ، والله تعالى لا شريك له فى السموات ولا فى الأرض فلذلك لا يعلم له شريكا ، فكيف يخبرون الله بما لا يعلمه ، لأنه لا وجود له من شريك له فى ملكه ، أو شفيع بغير إذنه .

قال تعالى « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون »(١)

وهذا يتعارض مع ما تدل عليه آيات أخرى من إنكار الكفار ليوم القيامة كقوله سبحانه عنهم « أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد »(٢)

وقوله تعالى حكاية عنهم « إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين »(٣)

وقوله تعالى أيضا حكاية عنهم « إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين »(٤)

---

(١) يونس ١٨ (٢) ق ٣

(٣) الدخان ٣٥ (٤) المؤمنون ٣٧

والجواب

أن الكفار يرجون شفاعة الأصنام فى الدنيا لإصلاح معاشهم وفى الآخرة على تقدير وجودها لقوله تعالى عن الكافر « وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى »[١]

وقوله تعالى عنه أيضا « وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا »[٢]

قال النسفى فى معنى هذه الآية : إقسام منه على أنه إن رد إلى ربه على سبيل الفرض كما يزعم صاحبه ليجدن فى الآخرة خيرا من جنته فى الدنيا ادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده[٣]

هذا وما فى آية يونس « قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض »

لا يتعارض أيضا مع قوله تعالى « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم »[٤]

فإن الله تعالى يعلم كل شىء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء كما بينت ذلك آية سورة المجادلة وغيرها من الآيات .

---

(١) فصلت ٥٠ : والحسنى : الجنة ، أو الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة

(٢) الكهف ٣٦ (٣) تفسير النسفى ٣/١٣ .

(٤) المجادلة ٧

وأما آية يونس فمعناها : أن الله تعالى لا شريك له فى السموات ولا فى الأرض فهو لا يعلم له شريكا ، فكيف يخبرون الله تعالى بما لا يعلمه حيث لا وجود له من شريك له فى ملكه، أو شفيع بغير إذنه .

قال القرطبى : أتخبرون الله أن له شريكا فى ملكه أو شفيعا بغير إذنه والله لا يعلم لنفسه شريكا فى السموات ولا فى الأرض ، لأنه لا شريك له فلذلك لا يعلمه .

ونظير قوله [١] « أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض » [٢]

كذلك لا يكون قوله تعالى « إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » [٣] معارضا لقوله تعالى :

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » [٤]

إذ ليس الاختبار فى قوله « ولنبلونكم » للعلم بما لم يكن معلوما له قبل الاختبار ، فالله تعالى لا يغيب عن علمه شىء ، وإنما المقصود : لنعاملنكم معاملة المختبر ، ومعنى « حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » حتى نعلم كائنا واقعا ما علمناه قبل وقوعه أنه سيكون .

قال الشوكانى فى معنى الآية :

لنعاملنكم معاملة المختبر ، وذلك بأن نأمركم بالجهاد حتى نعلم من امتثل الأمر بالجهاد وصبر على دينه ومشاق ما كلف به [٥] .

---

(١) الرعد ٣٣

(٢) تفسير القرطبى ص ٣١٦١ ط دار الشعب

(٣) آل عمران ٥ (٤) القتال ٣١ (٥) فتح القدير ٥/٤٠

سورة هود :

ابن نوح ليس من أهله الموعود بنجاتهم

يدل قوله تعالى « ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين »[١] على أن هذا الابن من أهل نوح عليه السلام .

مع أن قوله تعالى « قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح »[٢]

يفيد أنه ليس من أهله فكيف ذلك ؟

الجواب :

أن هذا الإبن من أهل نوح عليه السلام وقد أمر الله تعالى نوحا أن يحمل معه فى السفينة أهله ومن آمن ، فلما رأى ابنه متعرضا للغرق والهلاك دعاه للايمان والركوب معه .

﴿ ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾ ولم يدع ابنه للركوب مع كفره المستمر .

ويكون المقصود من قوله : ﴿ إن إبنى من أهلى ﴾ طلب هدايته الايمان ونجاته فكأنه قال : رب إن ابنى من أهلى فاهده للايمان ونجه ، فالإنسان يحب الخير لأهله ، ولاخير أحسن من الهداية والنجاة ، وقد وعدتنى إنجاء أهلى ومن آمن .

وعلى هذا يكون معنى ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ إنه ليس من أهلك

---

(١) هود ٤٥ (٢) هود ٤٦

الذين يؤمنون فيستحقون النجاة ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ إنه كفر كفراً مستمراً لا ينتهى حتى يهلك لسبق القول عليه بذلك .

ويكون النهى المتوجه إلى نوح عليه السلام فى قوله ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم ﴾ لتحذيره من طلب الهداية والنجاة لابنه فى هذا الوقت ، فلن يجاب له هذا المطلب ، حيث إن الإبن ممن سبق عليه القول بعدم الإيمان فى علم الله ، ونوح لا يعلم بذلك ، فنهاه الله أن يسأل إيمان ونجاة من لا يعلم إن كان ممن سبق عليه القول أنه لا يؤمن ، أو كان ممن يمكن إيمانهم .

ومثل هذا السؤال يحتاج إلى إذن من الله تعالى ، لأنه عن شىء لا يعلمه إلا الله تعالى ، والله لم يأذن فيه ، وهذا السؤال من نوح عليه السلام ، من باب ترك الأولى فلا يقدح فى عصمته .

سورة هود (٢) :

نعيم الجنة وعذاب النار دائمان لا ينقطعان

تعددت النصوص الظاهرة فى أن مكث أهل الجنة فيها دائم لا ينقطع ولا ينتهى ، وأن أهلها مخلدون فيها أبدا لا يخرجون منها قال تعالى :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جناب تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا[١] ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار[٢] ﴾ .

وأن مكث أهل النار فيها دائم كذلك لا ينقطع ولا يفنى ، وأن أهلها مخلدون فيها أبدا لا يخرجون منها قال تعالى :

﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا* إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيراً[٣] ﴾ .

وقال تعالى أيضا « وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار »[٤] .

---

(١) النساء ٥٧ (٢) الرعد ٣٥

(٣) النساء ١٦٨ ، ١٦٩ (٤) البقرة ١٦٧

وفى مقابل هذه الآيات آيات أخرى .

تفيد أن عذاب أهل النار ليس أبديا ، وأن خلود الأشقياء فى النار ينقطع عندما تتعلق مشيئة الله تعالى بانقطاعه وأن السعداء مخلدون فى الجنة إلا وقتا شاء الله تعالى أن لا يكونوا فيها .

قال تعالى « ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله إن ربك حكيم عليم »[١] .

وتصرح بعض الآيات أن لبث الطاغين فى جهنم أحقاب .

قال تعالى « إن جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآباه لابثين فيها أحقابا »[٢] .

والآيات التى تفيد خلود الأشقياء فى النار ، والسعداء فى الجنة إلا وقتاً شاء الله تعالى أن لا يكون فيه الأشقياء فى النار ووقتالا يكون السعداء فيه فى الجنة قوله تعالى

« فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات الأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ »[٣] .

---

(١) الأنعام ١٢٨ (٢) النبأ ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣

(٣) هود ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨

التوفيق بين الآيات

فى التوفيق بين مايظنه البعض متعارضا من هذه الايات نقول :

إن الآيات المصرحة بأن مكث أهل الجنة فيها دائم لاينقطع. وأنهم لا يخرجون منها والآيات التى أفادت أن أصحاب النار مخلدون فيها أبداً لايخرجون منها وأن عذابها لايفنى ولا يخفف . على ظاهرها، ومفادها هو المقطوع به ، ولاخلاف فيه .

وأما الآيات التى تضمنت أن خلود الأشقياء فى النار معلق على مشيئة الله تعالى ، وأن مكثهم فيها ينقطع عندما يتعلق مشيئة الله بانقطاعه .

وكذلك التى تضمنت أن خلود السعداء فى الجنة مرتبط بمشيئة الله تعالى ، وأنهم مخلدون فيها إلا وقتاً شاء الله تعالى أن لا يكونوا فيها :

نبين المقصود فيها على النحو التالى :

١ — آيات سورة النبأ « إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآبا، لابثين فيها أحقاباً » معناها : إن جهنم كانت فى حكم الله وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها .

وأن جهنم مرجع للكافرين — الذين طغوا بالكفر . وهؤلاء الكافرون لابثون فى النار دهوراً متعاقبة لاتنقطع ، وكلما مضى حقب جاء حقب .

فلبث الكافرين فى جهنم دائم لاينقطع

٢ — آيات سورة هود — « فأما الذين شقوا ففى النار ... » الآيات وما جاء على شاكلتها مما علق الخلود فيها على مشيئة الله تعالى .

نبين أولا معنى « خالدين فيها مادامت السموات والأرض » فى جانب الذين شقوا وفى جانب الذين سعدوا بأنه ليس المراد بها سموات الدنيا ، وأرضها ، فان هذه تذهب بذهاب الدنيا ، قال تعالى« يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات »فالسموات والأرض فى الآية هى سموات وأرض الآخرة وهذه دائمة لاتنتهى . يقول الحسن البصرى : سماء غير هذه السماء ، وأرض غير هذه ، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض[1].

وقال البعض : إن هذا الإخبار جار على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة فى دوام الشيء قالوا : هو دائم مادامت السموات والأرض ومنه قولهم : لا آتيك ماجن ليل ، وما اختلف الليل والنهار وما ناح الحمام ونحو ذلك :فيكون المعنى : أنهم خالدون أبداً لاانقطاع لذلك ولاانتهاء له .

وثانياً : إن الاستثناء فى قوله « إلا ماشاء ربك » و « إلا ماشاء الله » فيما يتعلق بأهل النار — عائد على العصاة من أهل الإيمان ، وأنهم يخرجون من النار بعد أن يعذبوا فيها مدة من الزمن بحسب معاصيهم .

ويكون قوله سبحانه « فأما الذين شقوا » عاما فى الكفرة والعصاة ويكون الاستثناء من « خالدين » وتكون « ما » بمعنى من .

وهناك قول آخر هو : أن المدة التى استثناها الله تعالى هى المدة التى بين بعثهم من قبورهم واستقرارهم فى مصيرهم .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٠/١

وقول ثالث : هو : أن هذا الاستثناء إنما هو على طريقة ما ندب إليه الشارع فى الاستثناء فى الكلام على حد قوله « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » .

وأقوال أخرى ضعيفة أعرضت عنها لظهور ضعفها .

والقول الأول هو الأقوى ، وتؤيده الأحاديث الكثيرة الواردة فى خروج عصاة المؤمنين من النار .

وفى تفسير ابن كثير : أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والمؤمنين حتى يشفعون فى أصحاب الكبائر ، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين ، فتخرج من لم يعمل خيراً قط ، وقال يوما من الدهر لا إله إلا الله ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمضمون ذلك [1]

ومن هذه الأحاديث :

ما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة : أن ناسا قالوا لرسول الله ﷺ يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ... وفيه : وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله فيعرفونهم فى النار يعرفونهم بأثر السجود تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار وقد امتحشوا [2] فيصب عليهم ماء

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٦٠

(٢) امتحشوا : احترقوا

الحياة فينبتون منه كما تنبت الحبة فى حميل[١] السيل[٢] » .

ومارواه مسلم أيضاً بسنده عن أبى سعيد الخدرى . وفيه: فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حما[٣] فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل ... إلى أن يقول : « هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة ـــ بغير عمل عملوه ولا خير قدموه... »[٤]

والاستثناء فى قوله تعالى « وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ » يحمل على معنى إلا ما شاء ربك من عدم خلدوهم فى الجنة كما يخلد غيرهم ، وذلك لتأخر خلودهم إليها مقدار المدة التى لبثوها فى النار .

وذكر البعض : أن الاستثناء هنا معناه : أن دوام السعداء فى الجنة ليس أمراً واجبا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس .والأول أقوى .

ومعنى « عطاء غير مجذوذ » عطاء غير مقطوع ، ونص عليه حتى لا يتوهم متوهم من ذكره المشيئة أن ثم انقطاع ، بل هو دائم لا ينقطع

---

(١) « الحبة » بكسر الحاء وتشديد الباء المفتوحة : بذر البقول والعشب، وحميل السيل : ماجاء به السيل من طين أو غثاء .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ٣/٢٣ (٣) الحم : الفحم

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى ٣/٢٢ ، ٢٣

سورة هود (٣)

اختلاف الناس فى الهدى والضلالة

يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس متفقين على الإيمان والطاعات عن اختيار ، ولـكن لم يشأ ذلك بل شاء أن يكونوا مختلفين كفارا وايمانا لما علم من بعضهم اختيار الـكفر ومن بعضهم اختيار الإيمان ؛ إلا من رحمهم الله من الاختلاف فاتبعوا الحق .

فى قوله تعالى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »[١]

ومعنى : « ولذلك خلقهم » كما قال الحسن البصرى : والاختلاف ـ إيمانا وكفرا ـ خلقهم .

وعن ابن عباس : خلقهم فريقين كقوله ﴿ فمنهم شقى وسعيد[٢] ﴾ .

وهذا يتعارض مع مايفيد أن الله تعالى خلق الجن والإنس لعبادته كقوله ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون[٣] ﴾ .

والتوفيق فيهما .

بحمل آية الذاريات على معنى من المعانى الآتية :

١ — وما خلقت الجن والإنس إلا ليوحدونى ، وتفسير العبادة

---

(١) هود ١١٨ ، ١١٩

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٢٩١ ط دار الشعب

(٣) الذاريات ٥٦

بالتوحيد هو مذهب ابن عباس رضى الله عنهما ، واختار هذا المعنى النسفى فقال : والوجه أن تحمل العبادة على التوحيد فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : كل عبادة فى القرآن فهى توحيد[١] .

والمؤمن يوحد الله تعالى اختيارا فى الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده اضطراراً فى الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء قال تعالى ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور[٢] ﴾ .

والمعنى : أن الإنسان إذا وقع فى شدة ابتهل إلى الله تعالى بالدعاء ، وترك كل من عداه ونسى جميع ماسواه ، فإذا نجا من تلك الشدة فمنهم من يبقى على تلك الحالة وهو المقتصد ، وهو قوله تعالى : ﴿ فمنهم مقتصد ﴾ ومنهم من لم يوف بما عاهد وهو المراد بقوله : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ .

٢ — أن المعنى وما خلقت الجن والإنس إلا مستعدين لعبادتى متمكنين منها أتم استعداد وأكمل تمكن ، فالموفقون يعبدونه ، والمخذولون يعرضون عن عبادته .

٣ — قال القشيرى : الآية دخلها التخصيص بالقطع ، لأن المجانين لم يؤمروا بالعبادة ، ولا أرادها منهم وقد قال ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس[٣] ﴾ ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة فالآية

---

(١) تفسير النسفى ١٨٩/٤ (٢) لقمان ٣٢

(٣) الأعراف ١٧٩

محمولة على المؤمنين منهم ، ويدل عليه قراءة ابن مسعود وأبى بن كعب : « وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون »[١] .

وقال النسفى : العبادة إن حملت على حقيقتها فلا تكون الآية عامة ، بل المراد بها المؤمنون من الفريقين دليله السياق أعنى ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ ، وهذا لأنه لا يجوز أن يخلق الذين علم منهم أنهم لا يؤمنون للعبادة ، لأنه إذا خلقهم للعبادة وأراد منهم العبادة فلا بد أن توجد منهم ، فإذا لم يؤمنوا علم أنه خلقهم لجهنم كما قال : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس[٢] ﴾ .

٤ — أن المعنى : وما خلقت الجن والإنس إلا ليخضعوا لى ويتذللوا ، ومعنى العبادة فى اللغة الذل والخضوع والإنقياد ، وكل مخلوق من الإنس والجن خاضع لقضاء الله متذلل لمشيئته منقاد لما قدره عليه ، خلقهم على ما أراد ورزقهم كما قضى ، لا يملك أحد منهم لنفسه نفعاً ولا ضراً[٣] .

---

(١) فتح القدير للشوكانى ٥/٩٢

(٢) تفسير النسفى ٤/١٨٨

(٣) فتح القدير ٥/٩٢

سورة الأنعام :

شاء الله شرك المشركين ولم يرضه لهم

أخبر تعالى عن المشركين أنهم احتجوا بأن الشرك الواقع منهم ومن آبائهم إنما هو بمشيئة الله تعالى ، ولو لم يشأه لم يقع ، كما أن تحريمهم مالم يحرمه الله تعالى من البحائر والسوائب وغيرهما واقع أيضا بمشيئة الله تعالى .

ولو شاء منهم عدم التحريم ماحرموا وذلك فى قوله تعالى :

﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء[١] ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم[٢] ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء[٣] ﴾ .

وهذا القول من المشركين صدق وحق ولا شك فى ذلك ، فإن كل شيء بمشيئة الله عز وجل ؛ فلو شاء عدم إشراكهم ما أشركوا ،ولوشاء منهم عدم عبادة سواه ماعبدوا من دونه من شيء ولو شاء منهم عدم تحريم ما حرموه لما وقع .

وقد أيدت آيات أخرى ذلك المعنى منها قوله تعالى ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل ﴾[٤]

---

(١) الأنعام ١٤٨ (٢) الزخرف ٢٠

(٣) النحل ٣٥ (٤) الأنعام ١٠٧

وأفادت الآية ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ [١] أن الله تعالى لو شاء هداية الجميع لاهتدوا .

وأفادت الآية الكريمة ﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ [٢] أن الله تعالى لم يشأ هداية جميع الناس ولو شاء هداية الجميع لهداهم ، ولكن شاء هداية البعض دون البعض ، كما أفاد نفس المعنى الآية الكريمة ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ [٣] .

وإذا كان الكلام الذى قاله الكفار حقا ، فما وجه رد الله تعالى عليهم ذلك وتكذيبه لهم فى الآيات السابقة فى قوله فى آيه الأنعام ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ وفى قوله فى آية الزخرف : ﴿ مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾ وفى آية النحل ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾

والجواب

إن هذا الكلام الذى قاله الكفار حق أريد به باطل ، فهم أرادوا أن الله تعالى راض بفعلهم وهذا باطل فرد الله عليهم هذا الباطل الذى قصدوه من هذا الكلام الحق ، وكذبهم فيه .

---

(١) الأنعام ٣٥ (٢) النحل ٦

(٣) السجدة ١٣

وتوضيح ذلك كما ذكره الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي

إن مرادهم أنهم لما كان كفرهم وعصيانهم بمشيئة الله ، وأنه لو شاء لمنعهم من ذلك، فعدم منعه لهم دليل على رضاه بفعلهم، فكذبهم الله في ذلك مبينا أنه لا يرضى بكفرهم كما نص عليه بقوله ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ (١)

فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية يلزمها الرضى ، وهو زعم باطل ، بل الله يريد بإرادته الكونية مالا يرضاه بدليل قوله ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ (٢) مع قوله ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ والذي يلازم الرضى حقا إنما هو الإرادة الشرعية (٣) .

وأجيب أيضاً : بأنهم لم يقولوا ماقالوه عن اعتقاد، بل قالوه استهزاء

قال النسفي : وتشبثوا بمثل هذا فلم ينفعهم ذلك إذ لم يقولوه عن اعتقاد بل قالوا ذلك استهزاء .

ولأنهم جعلوا مشيئته حجة لهم على أنهم معذورون به وهذا مردود لا الإقرار بالمشيئة (٤)

---

(١) الزمر ٧ (٢) البقرة ٧

(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ص ١٢٩

(٤) تفسير النسفي ٢/٣٩

سورة لقمان

مصاحبة الوالدين الكافرين بالمعروف لا موادتهما

أمر الله تعالى بمصاحبة الوالدين الكافرين بالمعروف ، والاحسان إليهما فى قوله تعالى ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (١)

وقد يفهم خلاف ذلك من الآيه الكريمة

﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ الآية (٢)

ويعرف أنه لا اختلاف بين الآيتين ، إذا عرف أن الموادة غير

---

(١) لقمان ١٥ . وسبب نزول هذه الآية . كما روى الطبرانى بسنده عن سعد بن مالك قال : أنزلت فى هذه الآية « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » الآية . وقال : كنت رجلا برا بأمى ، فلما أسلمت . قالت : ياسعد ما هذا الذى أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أولا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فتعير بى فيقال : ياقاتل أمه . فقلت : لا تفعلى ياأمه ، فإنى لا أدع دينى هذا لشىء ، فمكثت يوما وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوما وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها . فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه . تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى هذا لشىء ، فإن شئت فكلى ، وإن شئت لا تأكلى . فأكلت . [تفسير ابن كثير ٦/٣٤٩ ط الشعب]

(٢) المجادلة ٢٢

المصاحبة بالمعروف فالموادة : المحبة والموالاة وهى من أفعال القلوب ، والله تعالى حذر من محبة وموالاة الكفار جميعا يدخل فى ذلك الآباء وغيرهم .

ومصاحبة الوالدين بالمعروف، والإحسان إليهما من أفعال الجوارح وهى أعم من الموادة ، فقد تصاحب بالمعروف إنسانا تودّه،وقد تصاحب بالمعروف إنسانا لا تودّه ، والمؤمن مطالب أن يصاحب والديه الكافرين بالمعروف من غير مودة ومحبة، وأما والده المؤمنان فيصاحبهما بالمعروف ويودهما أيضا ، فتبين بهذا أنه لا تعارض بين الآيتين .

الغفران للمسرفين على أنفسهم بالمعاصى

قال تعالى ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (١)

وفى هذه الآية أمران :

الأمر الأول : أن المسرفين ليس لهم أن يقنطوا من رحمة الله وأنهم بمعرض أن تغفر لهم ذنوبهم مع أن قوله تعالى ﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ (٢) يفيد خلاف ذلك .

والجواب عن ذلك بواحد من اثنين

الأول : أن الإسراف يكون بالكفر ، ويكون بارتكاب المعاصى دون الكفر .

فآية الزمر ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ فى الإسراف بالمعاصى وآية غافر ﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ فى الإسراف بالكفر .

الثانى : أن آية الزمر فى المسرفين الذين يتوبون ، وآية غافر فى المسرفين الذين لا يتوبون .

الأمر الثانى : أن آية الزمر هذه دلت على غفران جميع الذنوب ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ مع أن قوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن

---

(١) الزمر ٥٣ (٢) غافر ٤٣

يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾ (١) .

يدل على أن من الذنوب ، ما لا يغفر وهو الشرك بالله عز وجل

والجواب :

أن آية ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ مخصصة لآية ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾

---

(١) النساء ١١٦

سورة غافر :

الجدال بالباطل والجدال بالحق

قول الله تعالى ﴿ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد﴾ .[١]

ليس معارضاً لقوله تعالى أمراً لنبيه وأمته بالجدال فى قوله :

﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾[٢] .

وقوله ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾[٣] .

لأن آية غافر فى الجدال بالباطل قصدا إلى دحض الحق ومعنى الآية ما يخاصم فى دفع آيات الله وتكذيبى إلا الذين كفروا .

يؤيد هذا قوله فى الآية التالية لها ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب[٤] ﴾ .

والجدال فى آية ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ هو الجدال بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة أو : بما يوقظ القلوب ويوقظ النفوس ويجلو العقول[٥] .

والجدال فى آية ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن﴾

---

(١) غافر ٤ (٢) النحل ١٢٥

(٣) العنكبوت ٤٦ (٤) غافر ٥

(٥) تفسير النسفى ٢/٣٠٥

المقصود به أيضا الجدال بالخصلة التى هى أحسن، وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى الله عز وجل ، والتنبيه لهم على حججه وبراهينه رجاء إجابتهم إلى الإسلام ، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة .

﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ بأن أفرطوا فى المجادلة ولم يتأدبوا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم والتخشين فى مجادلتهم .

وبالجملة : فان الجدال لاستيضاح الحق ، ورفع اللبس ، والبحث عن الراجح والمرجوح ، وعن المحكم والمتشابه ودفع مايتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن وردهم بالجدال إلى المحكم . من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى الله تعالى .

وبهذا أخذ الله عز وجل الميثاق على الذين أوتوا الكتاب فقال ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه[1] ﴾ .

وقال ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾[2] .

---

(١) آل عمران ١٨٧

(٢) البقرة ١٥٩

سورة الأحقاف :

الرسول لايدرى مايفعل به ولا بقومه

يقول الله تعالى ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل وماأدرى مايفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا مايوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين[١] ﴾ .

فمعنى ﴿ ما كنت بدعا من الرسل ﴾ لست بأول الرسل .

قال ابن كثير : لست بأول رسول طرق العالم ، بل قد جاءت الرسل من قبلى ، فما أنا بالأمر الذى لانظير له حتى تستنكروني ، وتستبعدوا بعثى إليكم،فانه قد أرسل الله قبلى جميع الأنبياء إلى الأمم[٢]

وقوله ﴿ وما أدرى مايفعل بى ولا بكم ﴾ قد فسر بتفسيرين :

الأول : أن ذلك فى الدنيا ، أى ماأدرى مايفعل بى ولا بكم فيما يستقبل من الزمان ، هل أبقى فى مكة أو أخرج منها ؟ وهل أموت أو أقتل ؟ وهل تعجل لكم العقوبة أو تمهلون ؟

ذكر ابن كثير أن هذا القول هو الذى عول عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره ، ولا شك أن هذا هو اللائق به صلوات الله وسلامة عليه فانه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يئول إليه أمره وأمر مشركى قريش إلى ماذا أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم[٣] .

---

(١) الأحقاف ٩

(٢) تفسير ابن كثير ٧/٢٦٠ ط الشعب

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة

وعلى هذا المعنى فلا إشكال فى الآية .

التفسير الثانى : وما أدرى مايفعل بى ولا بكم يوم القيامة ، وعلى هذا يقع التعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى ﴿ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر﴾[1] فان قوله ﴿ وما تأخر ﴾ تنصيص على حسن العاقبة والخاتمة .

وقوله تعالى فى شأن المؤمنين ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيما ﴾[2] .

والجواب :

إن آية الأحقاف كانت أولا إذ هى مكية وأما سورة الفتح فنزلت عام ست فى رجوعه ﷺ من الحديبية ، فكان أن أعلم الله تعالى نبيه ﷺ بما لم يكن علمه من قبل .

قال القرطبى : ﴿وما أدرى مايفعل بى ولا بكم﴾ يريد يوم القيامة، ولما نزلت فرح المشركون واليهود والمنافقون وقالوا : كيف نتبع نبيا لايدرى مايفعل به ولا بنا ، وأنه لافضل علينا ، ولولا أنه ابتدع الذى يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذى بعثه بما يفعله به فنزلت ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ فنسخت هذه الآية ، وأرغم الله أنف

---

(٤) الفتح ٢
(٥) الفتح ٥

الكفار، وقالت الصحابة هنيئا لك يارسول الله، لقد بين الله لك ما يفعل بك ، فليت شعرنا ماهو فاعل بنا فنزلت ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ الآية ونزلت ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً ﴾ (١)

قاله أنس وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك(٢) .

---

(١) الاحزاب ٤٧

(٢) تفسير القرطبي

طعام أهل النار

قال تعالى ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾[١] :

هذه الآية بأسلوب الحصر الذى يفيد أنه لاطعام لأهل النار إلا الضريع وهو نبت يقال له : الشبرق فاذا يبس فهو ضريع ، وقد جاءت آية أخرى تدل على حصر طعامهم فى غير الضريع وهى قوله تعالى ﴿ فليس له اليوم ههنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين ﴾[٢] .

والغسلين : غسالة أهل النار . على وزن فعلين من الغسل والنون زائدة وأريد به هنا : مايسيل من أبدانهم من الصديد والدم .

وفى موضع آخر حصر مايأكلونه فى النار قال تعالى ﴿ أولئك مايأكلون فى بطونهم إلا النار[٣] ﴾ .

وفى موضع آخر ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾[٤] وظاهر هذا التناقض .

ويزول هذا التناقض بأن نقول العذاب ألوان ، والمعذبون طبقات فمنهم أكلة الضريع ومنهم أكلة الغسلين ومنهم أكلة النار ومنهم أكلة الزقوم فلا تناقض بين هذه الآيات قال ابن قتيبة : إن النار دركات ، والجنة درجات ، وعلى قدر الذنوب والحسنات تقع العقوبات والمثوبات ،

---

(١) الغاشية ٦ (٢) الحاقة ٣٥ ، ٣٦

(٣) الدخان ٤٣ ، ٤٤

(٤) البقرة ١٧٤

فمن أهل النار من طعامه الزقوم، ومنهم من طعامه غسلين ، ومنهم من شرابه الحميم ومنهم من شرابه الصديد .

وقالوا : كيف تكون فى النار شجرة ، والنار تأكل الشجر فأنزل الله ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن﴾ (١) .

يعنى بالرؤيا : ما رآه ليلة أسرى به وأخبر عنه ،فارتد اذلك قوم، وزاد الله فى بصائر قوم وأراد بالشجرة الملعونة شجـــرة الزقوم . فهذا وجه .

وقد يكون الضريع وشجرة الزقوم نبتين من النار ، أو من جوهر لا تأكله النار ، وكذلك سلاسل النار وأغلالها ، وأنكالها وعقاربها وحياتها لو كانت على ما نعلم لم تبق على النار ، وإنما دلنا الله سبحانه على الغائب عنده بالحاضر عندنا ، فالأسماء متفقة الدلالة والمعانى مختلفة (٢) .

وقيل : يجوز أن يكون طعامهم جميع ذلك .

وقيل إن المعنى فى جميع الآيات أنهم لا طعام لهم أصلا ، لأن الضريع ليس طعاما ، وكذلك الغسلين ، وأيضا النار وكذلك الزقوم فمن طعامهم هذه الأشياء لا طعام لهم أصلا ،وعلى ذلك فلا إشكال .

---

(١) الاسراء ٦٠

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٦٨، ٦٩، ٧٠

الشيطان ليس له حجة على الناس

صرحت آيات من القرآن الكريم بأن الشيطان له سلطان على أوليائه ومن اتبعه من الغاوين مثل قوله تعالى ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ (١) .

وقوله تعالى ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ (٢) .

وقد صرحت آيات أخرى بنفى سلطانه عليهم منها .

قوله تعالى ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطان ﴾ (٣) .

وقوله تعالى حكاية عنه : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ (٤) .

والجواب :

أن السلطان الذى أثبته الله تعالى له عليهم غير السلطان الذى نفاه .

وذلك أن السلطان المثبت هو سلطان الإغواء ، وتزيين الباطل لهم ودعوتهم بوساوسه إلى الضلالة .

والسلطان المنفى هو سلطان الحجة فليس له حجة على دعاواه الزائفة

---

(١) النحل ١٠٠ (٢) الحجر ٤٢

(٣) سبأ ٢٠ ، ٢١ (٤) إبراهيم ٢٢

عن الحق ، وليس له برهان على دعوته الباطلة ومواعيده الكاذبة ، وإنما هم بمجرد أن دعاهم إلى الباطل أجابوه بلا حجة ولا برهان .

أو : أن السلطان المثبت هو سلطان الإغواء ، وتزيين الباطل ، والوسوسة بالشر .

والسلطان المنفى هو سلطان القهر . أى أنه ليس له عليهم قهر يضطرهم إلى إجابته . وإنما هم الذين أطاعوه واتبعوه فى باطله بإرادتهم واختيارهم بمجرد أن وسوس لهم .

سورة النحل :

معية الله لعباده

تدل آيات من القرآن الكريم على أن معية الله خاصة ببعض خلقه . فتدل الآية الكريمة ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ [١]، على أن معية الله خاصة بالمتقين المحسنين .

ويدل قوله تعالى أيضاً لموسى وهرون عليهما السلام ﴿ لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ﴾ [٢] على معية خاصة بهما .

ويدل قوله تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ [٣]، على معية خاصة بالملائكة .

ويدل قوله تعالى : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ [٤] على معية خاصة بالنبى ﷺ وصاحبه (أبى بكر) رضى الله عنه ، بينما تدل آيات أخرى على أن معية الله عامة ، منها :

قوله تعالى : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين * فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ [٥] .

وقوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾ [٦] .

---

(١) النحل ١٢٨ (٢) طه ٤٦
(٣) الأنفال ١٢ (٤) التوبة ٤٠
(٥) الأعراف ٦ ، ٧ (٦) المجادلة ٧

وقوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ [١] .

والجواب :

أن لله تعالى معية خاصة ومعية عامة :

فالمعية الخاصة لمن ذكروا فى الآيات السابقة تكون بالتوفيق ، والحفظ والنصر والإعانة .

والمعية العامة لكل الخلق تكون بالإحاطة الكاملة ، والعلم التام ، والقدرة النافذة . فالله تعالى محيط بكل الأشياء عالم بكل صغيرة وكبيرة لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا هو عالم بها مطلع عليها نافذة قدرته فيها .

فظهر أنه لا تعارض بين الآيات .

---

(١) الحديد ٤

سورة إبراهيم (١)

الكافر يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت

يفهم من ظاهر قول الله تعالى ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾[١] أى أن الكافر يموت فى النار ، ولكن قوله بعد ذلك ﴿ وما هو بميت ﴾ يصرح بعدم موته

والجواب

أن معنى : « ويأتيه الموت من كل مكان » أنه تأتيه أسباب الموت المؤدية له عادة من كل جهة من الجهات ، أو من كل موضع من مواضع بدنه

﴿ وما هو بميت ﴾ والحال أنه لا يموت حقيقة ، بل يبقى الله تعالى روحه فى بدنه مع وجود مقتضى الموت عادة ، وذلك ليستمر عذابه

كما قال تعالى ﴿ ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾[٢]

أى لا يموت فى النار فيستريح ، ولا يحيى حياة يتلذذ بها ، أو تخلو من الآلام

وكما قال سبحانه أيضا ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور ﴾[٣]

---

(١) إبراهيم ١٧ (٢) الأعلى ١١ — ١٣

(٣) فاطر ٣٦

والمعنى : لا يقضى عليهم بالموت فيموتوا ويستريحوا من العذاب ، ولا يخفف عنهم من عذابها بل ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾

ومعنى ﴿ كذلك نجزى كل كفور ﴾ مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى كل من هو مبالغ فى الكفر [1]

---

(١) تفسير فتح القدير ٤/٣٥٤

سورة إبراهيم (٢)

دعوة إبراهيم بجعل مكة بلدا آمنا

قال الله تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا ﴾[١]

بتعريف البلد

وقال تعالى فى سورة البقرة ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾[٢]

بتنكير البلد

فما وجه هذا الاختلاف ؟

وجهه : أن إبراهيم عليه السلام سأل ربه أولا قبل بناء مكة وعندما كانت مكانا قفرا لازرع فيه ولا ماء ولا بناء أن يجعل هذا المكان بلدا آمنا ، وهو ما ذكر فى آية البقرة ثم لما صار هذا المكان بلدا ، وصار فيه بناء دعا إبراهيم ربه أن يجعله آمنا .

فالدعوة وقعت مرتين : مرة قبل بنائها ، ومرة بعده

قال الكرخى : ونكر البلد فى البقرة ، وعرفه فى إبراهيم ، لأن الدعوة — فى البقرة — كانت قبل جعل المكان بلدا ، فطلب من الله تعالى أن يجعل ويصير بلدا آمنا ، والدعوة — فى إبراهيم — كانت بعد جعله بلدا[٣] .

---

(١) إبراهيم ٣٥ (٢) البقرة ١٢٦

(٣) تفسير الجمل ٢/٥٢٦

وقال الزمخشرى : فإن قلت : أى فرق بين قوله ﴿ اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ وبين قوله ﴿ اجعل هـذا البلد آمنا ﴾

قلت : قد سأل فى الأول أن يجعل من جملة البلاد التى يأمن أهلها ولا يخافون ، وفى الثانى أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن كأنه قال : هو بلد مخوف فاجعله آمنا .

وهذا التوجيه يضيف إليه بدرالدين الزركشى توجيهاً آخر ، ويبين أن دعوة إبراهيم عليه السلام التى ذكرت فى البقرة كانت أولا مع أن سورة البقرة مدنية ، ودعوته التى ذكرت فى سورة إبراهيم كانت آخراً مع أنها مكية ، والإخبار عن ذلك فى القرآن لم يكن على ترتيب وقوع الدعوتين من إبراهيم عليه السلام قال : إنه فى الدعوة الأولى (سورة البقرة) كان مكانا ، فطلب منه أن يجعله بلداً آمناً ، وفى الدعوة الثانية (سورة إبراهيم) كان بلداً غير آمن ، فعرفه وطلب له الأمن .

أو كان بلدا آمنا وطلب ثبات الأمن ودوامه .

وكون سورة البقرة مدنية ، وسورة إبراهيم مكية لا ينافى هذا لأن الواقع من إبراهيم كونه على الترتيب المذكور ، والإخبار عنه فى القرآن على غير ذلك الترتيب[1] .

---

(١) البرهان ٢/٦٤ ، ٥ .

سورة المؤمنون :

تساؤل الناس يوم القيامة

قال الله تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾[١] .

تفيد هذه الآية الكريمة : أنه إذا نفخ فى الصور فلا أنساب بين الناس يومئذ ولا يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله .

بينما جاءت آيات أخرى تثبت الأنساب بين الناس يوم القيامة والتساؤل . فالآيات ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ﴾[٢] تثبت الأنساب .

والآية الكريمة ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾[٣] .

تثبت التساؤل .

والجواب :

١ — أن الأنساب يوم القيامة باقية كما كانت فى الدنيا ، إلا أنها لما انقطعت فوائدها يوم القيامة ، وذهبت آثارها التى كانت مترتبة عليها فى الدنيا من التعاطف والتعاون والنفع والنصرة ودفع العذاب ، كانت كأنها غير قائمة . فهذا هو المراد بنفعها .

---

(١) المؤمنون ١٠١

(٢) عبس ٣٤ — ٣٦

(٣) الطور ٢٥

٢ — وأما فيما يتعلق بنفي التساؤل وإثباته فيوجه بواحد من ثلاثة :

الأول أن عدم السؤال إنما هو بعد النفخة الأولى وقبل الثانية ، وحصول السؤال يكون بعد النفخة الأخرى .

الثاني : أن عدم السؤال هو عند تشاغل الناس بالصعق والمحاسبة ، والجواز على الصراط ، وحصوله فيما عدا ذلك .

الثالث : أن السؤال المنفي سؤال خاص ، وهو سؤال بعضهم العفو من بعض فيما بينهم من الحقوق ليأس كل من أن يعفو عنه غيره ، حتى ولو كان هذا الغير أباً أو أماً أو ابنا ، أو أخاً أو زوجة [1] .

---

(١) الإتقان ٢/٢٧ ، ٢٨

سورة المؤمنون (٢) :

اختلاف الكفار فى الآخرة فى مدة لبثهم فى الدنيا

يُسأل الكفار فى جهنم عن مدة لبثهم فى الدنيا فيقولون إنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم . وذلك فى قوله تعالى ﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ﴾ (١).

وتخبر آية أخرى عنهم أنهم يقولون يوم القيامة إن لبثهم فى الدنيا كان عشراً ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا ﴾ (٢).

أى أنهم يتسارون بينهم يوم القيامة يقول بعضهم لبعض سرًّا : ما لبثتم فى الدنيا إلا عشر ليال بأيامها .

وتصرح آية أخرى بأن الكفار يقسمون يوم القيامة أنهم ما لبثوا فى الدنيا — على الأصح — غير ساعة ، وهى قوله تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾ (٣)

والجواب عن هذا :

أن هذه الأقوال المختلفة التى حكتها هذه الآيات قد قالها الكفار لاختلافهم فى الآخرة فى تقدير مدة لبثهم فى الدنيا .

فبعضهم يقول : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، وبعضهم يقول : لبثنا عشراً ، وبعضهم يقول : لبثنا ساعة . فحكت الآيات أقوالهم المختلفة جميعا ، فلا تناقض .

---

(١) المؤمنون ١١٢ ، ١١٣ (٢) طه ١٠٢ ، ١٠٣

(٣) الروم ٥٥

سورة الطور :

كل إنسان مرتهن بعمله

يفيد قوله تعالى فى سورة الطور ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾[١] أن كل إنسان مرتهن بكسبه ومأخوذ به ، فإما أن يخلصه عمله وإما أن يهلكه ، ولو كان من أصحاب اليمين ، لما تفيده « كل » من الشمول .

وقد جاء فى سورة المدثر ما يفيد أن أصحاب اليمين ليسوا مرتهنين بذنوبهم ، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم . قال تعالى :

﴿ كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين ﴾[٣] .

ولا تناقض بينهما .

١ — إما لأن آية الطور فى الكفار ، وآية المدثر فى المؤمنين . قال ابن عباس : ارتهن أهل جهنم بأعمالهم وصار أهل الجنة إلى نعيمهم[٣] .

وقال الخازن : المراد بآية الطور الكافر : أى كل كافر بما عمل من الشرك مرتهن بعمله فى النار ، والمؤمن لا يكون مرتهناً بعمله لقوله تعالى ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين ﴾[٤] .

٢ — وإما أن آية الطور عامة خصصتها آية المدثر .

فكل نفس رهن بكسبها غير مفكوكة إلا أصحاب اليمين فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم ، بل يفكون بما أحسنوا من العمل .

---

(١) الطور ٢١ (٢) المدثر ٣٧ ، ٣٩

(٣) تفسير القرطبي ٦٨/١٧ (٤) تفسير الخازن ٢٠٨/٤

مالا ينتفع به من الحواس والعقول فى حكم العدم

قال الله تعالى ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ (١) .

وظاهر هذه الآية أن الكفار كانوا فى الدنيا لا يسمعون ولا يعقلون

وظاهر قوله تعالى عنهم ﴿ صم بكم عمى فهم لا يعقلون (٢) ﴾ أن الكفار فى الدنيا لا يسمعون ولا ينطقون ولا يبصرون ولا يعقلون .

وأفادت آيات أخرى أنه كانت لهم أسماع وأبصار وعقول ففى السورة نفسها يقول سبحانه ﴿ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ (٣) .

ويقول تعالى أيضاً ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴾ (٤) .

والجمع بين هذه الآيات ظاهر إذ أن للكفار حواس وعقول سليمة كالتى عند المؤمنين .

إلا أنهم لما كانوا فى الدنيا يعرضون عن سماع الحق ويسمعون غيره ولا ينطقون بالحق، وإن تكلموا بغيره ولا يرون الحق وإن رأوا رأوا غيره كانت هذه الحواس فى حكم العدم ، لعدم الانتفاع بها ، والذى لا ينتفع به كالمعدوم، كما أنهم لم ينتفعوا بعقولهم فى معرفة الحق، والوصول

---

(١) الملك ١٠ (٢) البقرة ١٧١

(٣) الملك ٢٣ (٤) الأحقاف ٢٦

إليه اعتبروا أنهم لا يعقلون. وقال الزجاج فى معنى ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ : لو كنا نسمع سمع من يعى أو نعقل عقل من يميز وينظر ما كنا من أهل النار[١] .

وقد بين تعالى هذا الجمع فى قوله ﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئـــدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

ونفس هذا الجمع يكون بالنسبة للمنافقين .

فقد أخبر تعالى عنهم أنهم لا يسمعون ولا يتكلمون ، ولا يبصرون فى قوله تعالى ﴿ صم بكم عمى فهم لا يرجعون ﴾[٢] .

بينما دلت آيات أخرى على أنهم يسمعون ويبصرون ويتكلمون .

منها قوله تعالى ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾[٣] .

وقوله تعالى ﴿ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴾[٤] .

وقوله تعالى ﴿ وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾[٥] .

فالمنافقون لهم أسماع وأبصار وألسنة ينطقون بها ولكن لما لم ينتفعوا بها فى الاهتداء إلى الحق والوصول إليه سماعاً له ، ورؤية له ، ونطقا به كانت هذه الحواس فى حكم العدم، فصح نفيها عنهم ووصفهم بأضدادها .

---

(١) فتح القدير ٥/٢٦١
(٢) البقرة ١٨
(٣) البقرة ٢٠
(٤) الأحزاب ١٩
(٥) محمد ٤

ورود الظن بمعنى اليقين فى القرآن وفى كلام العرب

أفاد ظواهر آيات فى القرآن الكريم أن الظن يكفى فى أمور المعاد.

منها قوله تعالى حكاية عن أهل اليمين الذين يصيرون إلى جنة عالية فى سورة الحاقة ﴿ إنى ظننت أنى ملاق حسابية ﴾[١] .

وقوله تعالى عن الخاشعين فى سورة البقرة ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾[٢] .

مع أنه قد جاءت آيات أخرى تفيد أن الظن لا يكفى ولا يغنى عن الحق شيئا وأنه إنما يعرف الحق الذى هو حقيقة الشىء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظن والتوهم كقوله تعالى .

﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا﴾[٣]

كما بينت آيات أخرى أن الظن يجىء يوم القيامة ، والجزاء فى الآخرة عرضهم لعذاب الله وأدخلهم النار وبئس القرار .

وذلك قوله تعالى ﴿ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين . وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾[٤] .

---

(١) الحاقة ٢٠ (٢) البقرة ٤٦

(٣) النجم ٢٧ ، ٢٨ (٤) الجاثيه ٣٢ ، ٣٣

والجواب :

إن الظن فى الأمور الاعتقادية ، ومنها المعاد لايكفى ، ولابد فيها من اليقين والجزم .

والظن فى آيتى الحاقة والبقرة بمعنى اليقين ،فإنه فى لقاء الله عز وجل والحساب فى اليوم الآخر ولا يغنى فى ذلك الشك والتوهم .

والظن يأتى بمعنى اليقين ، وبمعنى الشك .

وإتيان الظن بمعنى اليقين كثير فى القرآن وفى كلام العرب ، فمن أمثلته فى القرآن هاتان الآيتـــان وقوله تعالى ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾[1] أى أيقنوا أنهم مخالطوها وواقعون فيها .

وقوله تعالى ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾[2]

فمعنى يظنون : يوقنون .

ومن الظن بمعنى اليقين فى كلام العرب قول دريد بن الصمة .

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج سراتهم فى الفارس المسرد

فقوله ظنوا : بمعنى أيقنوا .

---

(١) الكهف ٥٣ (٢) البقرة ٢٤٩

سورة البقرة (١)

القرآن لاريب فيه

نفى الله تعالى عن القرآن الكريم الريب فى قوله تعالى :

﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه ﴾ (١)

ونفى الريب على سبيل الاستغراق : فليس فى القرآن فرد من أفراد الريب .

مع أنه قد جاء فى غير هذه الآية مايفيد وجود الريب فى القرآن الكريم من بعض الناس كالكفار المرتابين مثل قوله تعالى :

﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ (٢)

فكيف نوفق بينهما ؟

التوفيق بين الآيتين بواحد من الوجوه الآتية :

الأول : أن القرآن فى نفسه حق وصدق تدل على ذلك الأدلة الظاهرة والبراهين الواضحة فمن تأمل فيه وحقق النظر عرف أنه من عند الله وأنه الحق والصدق وانتفى عنه الريب فيه .

---

(١) البقرة ٢ ، ومعنى « لا ريب فيه » لا شك فيه ، وهو مصدر رابنى وحقيقة الريبة : قلق النفس واضطرابها ، ومنه قوله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » فإن الشك ريبة ، وإن الصدق طمأنينه ، وكون الأمر مشكوكا فيه مما تقلق له النفس ولا تستقر ، وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له وتسكن ، ومنه ريب الزمان : زهو ما يقلق النفوس من نوائبه (تفسير النسفى ١١/١)

(٢) سورة البقرة ٢٣ والمراد بعبدنا : محمد صلى الله عليه وسلم .

وإنما ارتاب الكفار فيه لعمى بصائرهم قال تعالى ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ [١] فعدم العلم بأنه الحق إنما أتى من عمى البصيرة . والإعراض عن التأمل فى الأدلة الواضحة على أنه حق وصدق من عند الله .

قال النسفى : وإنما نفى الريب على سبيل الاستغراق ، وقد ارتاب فيه كثير لأن المنفى كونه متعلقا للريب ومظنة له ، لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لاينبغى لمرتاب أن يقع فيه ، لأن أحداً لايرتاب فيه [٢] .

الثانى : أن قوله ﴿ لاريب فيه ﴾ خبر بمعنى النهى أى لاترتابوا فيه على حد قوله ﴿ فلا رفث ولافسوق ولاجدال فى الحج ﴾ [٣] أى لاترفثوا ولاتفسقوا ولاتجادلوا فى الحج .وعلى هذا الوجه فلا إشكال .

---

(١) الرعد ١٩

(٢) تفسير النسفى ١/١١

وإنما قال « لا ريب فيه » ولم يقل سبحانه : لا فيه ريب ، على حد قوله « لا فيها غول » لأن المراد نفى الريب عن القرآن ، وهذا يحصل من قوله : « لا ريب فيه » أما لو قال « لا فيه ريب » فانه لا يحصل المقصود ، وهو نفى الريب عنه ، بل يفيد شيئا آخر هو : أن كتابا غيره فيه الريب ، كما قصد فى قوله « لا فيها غول » تفضيل خمر الجنه على خمور الدنيا ، بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها خمر الدنيا

(٣) البقرة ١٩٧

الثالث : وقد حكاه الألوسى وضعفه : وهو : أن المعنى : لاريب فيه للمتقين ، أى : لاريب كائنا فيه للمتقين حال كونه هاديا [١] .

والوجه الأول أقواها ، ويليه الثانى ، وأما الثالث فضعفه ظاهر .

---

(١) فالجار والمجرور « فيه» صفة ، و « للمتقين » خبر ، و «هدى » حال من الضمير المجرور

[روح المعانى ١/١٠٧]

سـورة البقرة (٢) :

الأمة المحمدية أفضل الأمم

تفيد آيات من القرآن الـكريم تفضيل بنى إسرائيل على العالمين كقوله تعالى ﴿ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ (١)

وآيات أخرى قريبة من هذه منها قوله تعالى :

﴿ ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ (٢) .

وقوله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين ﴾ (٣)

وقد يفهم من تفضيل بنى إسرائيل على العالمين : أنهم أفضل من الأمة المحمدية فإنها من العالمين .

مع أن قوله تعالى ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ (٤) خطابا للامة المحمدية واضح فى أن الأمة المحمدية أفضل من جميع الأمم بما فى ذلك بنو إسرائيل .

والجواب عن ذلك

بأن الأمـــة المحمدية أفضل الأمم على الإطلاق بما فى ذلك بنو إسرائيل كما ذكرت الآية الـكريمة ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾

---

(١) البقرة ٤٧ (٢) الدخان ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢

(٣) المائدة ٢٠ (٤) آل عمران ١١٠

وكما دل عليه الحديث الذى رواه الإمام أحمد بسنده عن بهز عن ابنه حكيم عن جده معاوية بن حيدة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنكم وفيتم سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل »(١)

وذكر ابن كثير : أن هذا الحديث رواه أيضا الترمذى فى جامعه، وحسنه ، وابن ماجة فى سننه ، والحاكم فى مستدركه من رواية حكيم ابن معاوية بن حيدة عن أبيه ، والحديث الذى رواه الإمام أحمد بإسناد حسن - كما قال ابن حجر عن على بن أبى طالب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « جعلت أمتى خير الأمم »(٢)

وقال ابن كثير : وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه أشرف خلق الله ، وأكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبى قبله ، ولا رسول من الرسل ، فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه مالا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه(٣) .

وأما ماذكرته بعض الآيات من تفضيل بنى إسرائيل على العالمين فيفهم على واحد من الوجوه الآتية .

الأول : أن بنى إسرائيل أفضل من غيرهم من الأمم فى زمانهم ، والأمة المحمدية متأخرة فى الزمان عن بنى إسرائيل ، فهم لم يفضلوا عليها

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٥

(٢) فتح البارى ٨/٢٢٥ (٣) تفسير ابن كثير ١/٣٩١

قال الألوسى ـ فى معنى ﴿ وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ الكلام على حذف مضاف أى فضلت أباءكم ـ وهم الذين كانوا قبل التغيير ، أو باعتبار أن نعمة الآباء نعمة عليهم ، قال الزجاج : والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ وإذ نجيناكم ﴾ إلخ ، والمخاطبون لم يروا فرعون ولا آله ، ولكنه تعالى أذكرهم أنه لم يزل منعما عليهم ، والمراد بالعالمين : سائر الموجودين فى وقت التفضيل ، وتفضيلهم بما منحهم من النعم المشار إليها بقوله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ﴾ ولا يلزم من الآية تفضيلهم على النبى صلى الله عليه وسلم ولا على أمته الذين هم « خير أمة أخرجت للناس »[1]

الثانى : أن معنى « وأنى فضلتكم على العالمين » وأنى فضلتكم على كثير من الناس والأمة المحمدية ليست من هذا الكثير الذى فضل بنو إسرائيل عليهم .

قال الزمخشرى : وأنى فضلتكم على الجم الغفير من الناس كقوله « باركنا فيها للعالمين » يقال : رأيت عالما من الناس . يراد الكثرة[2]

الثالث : على تقدير أن « العالمين » يشمل كل عالم ، بناء على أن التعريف فى « العالمين » يفيد هذا الشمول ، فإنه لا يستلزم تفضيل بنى إسرائيل على الأمة المحمدية ، لأن الآية الكريمة « كنتم خير أمة أخرجت للناس » مخصصة لعموم قوله « وأنى فضلتكم على العالمين » ونظائرها من الآيات[3] .

---

(١) تفسير الألوسى ١/٢٥٠ (٢) الكشاف ١/٢٧٨

(٣) فتح القدير ١/٨٢

سورة البقرة (٣) :

رسل الله منصورون وغالبون

إننا نجد أنفسنا أمام طائفتين من الآيات القرآنية : احدهما تفيد أن بعض رسل بنى إسرائيل قد قتلوا ، أى أن أعداءهم تمكنوا منهم وانتصروا عليهم ، مثل قوله تعالى ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ﴾ (١) .

وقوله تعالى « قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين » (٢) .

وقوله تعالى « لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » (٣)

والطائفة الأخرى من الآيات تفيد أن رسل الله تعالى منصورون وغالبون ، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة منها قوله تعالى « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون » (٤) وقوله تعالى « إنا لننصر رسلنا والذين آمنو فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (٥) وقوله تعالى « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » (٦)

---

(١) البقرة ٨٧

(٢) آل عمران ١٨٣ والبينات : المعجزات ، والذى قالوه : القربان الذى تأكله النار (٣) المائدة ٧٠ (٤) الصافات ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣

(٥) غافر ٥٢ ، ويوم يقوم الأشهاد : هو يوم القيامة والأشهاد : الأنبياء والحفظة . (٦) المجادلة ٢١

فكيف نوفق بين هذه الآيات ؟

التوفيق بينهما بواحد من ثلاثة

الأول : أن الرسل قسمان : قسم أمروا بجهاد أعدائهم ، فهؤلاء نصرهم وغلبتهم عليهم يكون بالظفر على الأعداء ، وقهرهم ، وقسم لم يؤمروا بقتال أعدائهم ، بل أمروا بالصبر على أذاهم ، والكف عنهم وهؤلاء نصرهم وغلبتهم في الدنيا يكون بالحجة الظاهرة والبرهان الساطع الذي يدحض باطل الكافرين ، ومن هؤلاء من قتل ، وذلك ليعظم أجرهم ، وتزداد مكانتهم رفعة عند ربهم .

قال الزجاج : معنى غلبة الرسل على نوعين : من بعث منهم بالحرب فهو عالب في الحرب ، ومن بعث منهم بغير الحرب فهو غالب بالحجة (١)

الثاني : أن الحكم بنصر الرسل ، وغلبتهم على أعدائهم إنما هو للاكثر والمعظم فلا مانع أن يكون فيهم من لا ينصر على عدوه ، بل يصيبه الأذى أو يقتل ، وذلك ابتلاء لهم يعظم به أجرهم ، وترتفع به درجتهم عند ربهم .

الثالث : أن جميع الرسل منصورون كما نطقت بذلك الآيات القرآنية وبعضهم يكون بالظفر على العدو ، وبعضهم يكون نصره بالانتقام ممن آذوهم ، أو حاولوا قتلهم ، أو قتلوهم بالفعل ، ولو كان ذلك بعد موتهم .

---

(١) فتح القدير ٥/١٩٣

والجوابان الثانى والثالث قد ذكرهما ابن جرير عند تفسيره قول الله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ﴾ .

فقد أورد سؤالا قال : قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا ، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرا كإبراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى ، فأين النصرة فى الدنيا ؟ .

ثم أجاب عن ذلك بجوابين :

أحدهما : أن يكون الخبر خرج عاماً ، والمراد به البعض . قال : وهذا سائغ فى اللغة .

الثانى : أن يكون المراد بالنصر : الانتصار لهم ممن آذاهم ، وسواء كان ذلك بحضرتهم ، أو فى غيبتهم ، أو بعد موتهم ، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعيا ، فقد سلط الله عليهم من أعدائهم من أهانهم ، وسفك دماءهم وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر .

وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط الله تعالى عليهم الروم فأذلوهم وأهانوهم ، وأظهرهم الله تعالى عليهم ، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام إماما عادلا وحكماً مقسطاً ، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام ، وهذه نصرة عظيمة ، وهذه سنة الله تعالى فى خلقه فى قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين فى الدنيا ، ويقر أعينهم ممن آذاهم . .

قال السدى : لم يبعث الله تعالى رسولا قط إلى قوم فيقتلونه ،

أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق ، فيقتلون ، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم . فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم فى الدنيا .

قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون فى الدنيا ، وهم منصورون فيها[1] .

وهكذا نصر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه على من خالفه وناوأه ، وكذبه وعاداه فجعل كلمته هى العليا ، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ... ثم لا يزال هذا الدين قائما منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة ولهذا قال تعالى ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ . أى يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل .

---

(١) تفسير ابن جرير ٢٤/٧٤ ، ٧٥ بتصرف

سورة البقرة (٤) .

الأظلمون وجزاؤهم

قال الله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم[١] ﴾ .

الاستفهام فى هذه الآية إنكارى بمعنى النفى : أى لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها . ومعنى هذا أن الذى يمنع ذكر اسم الله فى مساجده ويسعى فى خرابها هو أظلم الناس على الإطلاق بينما ذكرت آيات أخرى أن آخرين من الناس ذوى أعمال معينة مختلفة غير المانعين ذكر الله فى مساجده . لا أحد أظلم منهم ، حيث تكرر هذا التركيب (ومن أظلم) و (فمن أظلم) فى آيات متعددة فى القرآن منها قوله تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ والآية التى بعدها « قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار[٢] » .

وقوله تعالى : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون[٣] » .

وقوله تعالى: « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم » إلى قوله « ألا لعنة الله على الظالمين[٤] » .

---

(١) البقرة ١١٤ (٢) الأعراف ٣٧ ، ٣٨

(٣) يونس ١٧ (٤) هود ١٨

وقوله تعالى : « فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين[١] » .

وقوله تعالى : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون[٢] » .

وقوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين[٣] » .

وعلى هذا يكون بين الآيات تناقض .

ويزول التناقض بالجمع بين هذه الآيات بواحد من هذه الأوجه :

الأول : تخصيص كل موضع بمعنى صلته أى لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله ، ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً ، وهكذا سائر الآيات ، وإذا تخصصت بصلاتها زال التناقض .

الثانى : أن التخصيص بالنسبة إلى السبق أى لا أحد ممن جاء بعد — كل واحد من المذكورين فى الآيات — سالكا طريقه أظلم منه ، فالمانع ذكر الله فى مساجده لا أحد ممن جاء بعده — فى منع ذكر الله فى مساجده — أظلم منه وهكذا . ويقول السيوطى فى الاتقان : وهذا يئول معناه إلى ماقبله ، لأن المراد السبق إلى المانعية والافترائية[٤] .

---

(١) الزمر ٣٢ (٢) السجدة ٢٢

(٣) العنكبوت ٦٨

(٤) هذا الوجه يئول معناه إلى الوجه الأول باعتبار أن فى كل منهما تخصيصا . الأول فيه التخصيص بما يفهم من نفس الصلات ، والثانى التخصيص فيه بالنسبة إلى ما سبق بد من ذلك النوع .

الثالث : وادعى أبو حيان أنه الصواب — أن نفى التفضيل لا يلزم منه نفى المساواة ، فنفى الأظلمية لا يستدعى نفى الظالمية ، لأن نفى المقيد لا يدل على نفى المطلق ، وإذا لم يدل على نفى الظالمية لم يلزم التناقض ، لأن فيها إثبات التسوية فى الأظلمية ، وإذا ثبتت التسوية فيها لم يكن أحد ممن وصف بذلك يزيد على الآخر ، لأنهم يتساوون فى الأظلمية وصار المعنى لا أحد أظلم ممن افترى ومن منع ونحوها .

ولا إشكال فى تساوى هؤلاء فى الأظلمية ، ولا يدل على أن أحد هؤلاء أظلم من الآخر ، كما إذا قلت : لا أحد أفقه من زيد وعمرو وخالد لا يدل على أكثر من نفى أن يكون أحد أفقه منهم ، وأما أنه يدل على أن أحدهم أفقه من الآخر فلا .

وقال بعض المتأخرين : هذا استفهام مقصود به التهويل والتفظيع من غير قصد إثبات الأظلمية المذكور حقيقة ولا نفيها عن غيره[١] ، وقد ضعفه البعض[٢] ، واعتبره البعض مزيلا للاشكال ولا بأس به[٣] .

---

(١) الاتقان للسيوطى ٢/٤٩ ، ٥٠

(٢) كالشيخ محمد الأمين الشنقيطى فى كتابه « دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب » ص ٣٦

(٣) كالشيخ الآلوسى فى روح المعانى ١/٢٦٣

سورة البقرة (٥) :

وجوب الصوم على المقيم الصحيح

يسبق إلى الذهن من قول الله تعالى : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين[١] ﴾ .

أن المقيم الصحيح القادر على صيام رمضان مخير بين الصوم ، والإفطار مع الإطعام عن كل يوم يفطره مسكيناً .

مع أن الآية التالية لها وهي قوله تعالى «فمن شهد منكم الشهر فليصمه[٢]» قد دلت على تعيين وجوب الصوم على المقيم الصحيح القادر عليه .

والجواب عن هذا على النحو التالي :

اختلف أهل العلم في هذه الآية :

﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ .

هل هي محكمة أو منسوخة ؟

١ — فذهب الجمهور إلى أنها منسوخة ، فقد كانت رخصة عند ابتداء فرض الصيام ، حيث شق على المسلمين ، لعدم إلفهم وتعودهم له .

فقد كان حكم صيام رمضان عند ابتداء فرضه أن المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر ، لما في ذلك من المشقة عليهما ، بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر ﴿ أياماً معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ .

---

(١) البقرة ١٨٤ (٢) البقرة ١٨٥

وأما الصحيح المقيم الذى يطيق الصيام فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإفطار والإطعام . إن شاء صام ، وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً ، فان أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير ، وإن صام فهو أفضل من الإطعام .

هذا معنى « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » .

حتى نزلت الآية التى بعدها « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه » فنسختها .

روى البخارى بسنده عن سلمة بن الأكوع قال : لما نزلت : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » كان من أراد أن يفطر ويفتدى حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها (١) .

ومذهب آخرين ، ومنهم ابن عباس رضى الله عنهما : أنها لم تنسخ وأنها رخصة للشيوخ والعجائز ، خاصة إذا كانوا لا يطيقون الصيام إلا بمشقة ، وهذا يناسب قراءة التشديد « وعلى الذين يُطَوَّقونه » ، أى يكلفونه .

روى البخارى بسنده عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقرأ : « وعلى الذين يطوقونه فدية طعام مسكين » قال ابن عباس : ليست بمنسوخة ،

---

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١٨١/٨

هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينا [١] .

ومن العلماء من لم يقل بالنسخ أيضاً على القراءة المتواترة وفسر « يطيقونه » بيصومونه جهدهم وطاقتهم ، وهو مبنى على أن الوسع اسم للقدرة على الشيء على وجه السهولة ، والطاقة : اسم للقدرة مع الشدة والمشقة .

فيصير المعنى : وعلى الذين يصومونه مع الشدة والمشقة . فيشمل نحو الحبلى والمرضع أيضا .

أو : على أنه من أطاق الفعل : بلغ غاية طوقه ، أو فرغ طوقه فيه .

ومن العلماء من ذهب إلى أن المعنى على تقدير « لا » أى : وعلى الذين لا يطيقونه فدية . وعليه فتكون الآية محكمة ، ويكون وجوب الإطعام على العاجز عن الصوم كالهرم والزمن .

وقد روى عن حفصة رضى الله عنها أنها قرأت ﴿ وعلى الذين لا يطيقونه [١] ﴾ .

وله نظير فى كلام العرب كقول الشاعر :

* فقلت يمين الله أبرح قاعدا *

أى لا أبرح قاعدا

وضعف هذا الوجه بأن فى القسم — كما فى البيت — دلالة على النفى بخلاف الآية وعلى أى قول من هذه الأقوال فلا تعارض بين الآيتين .

---

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١٧٩/٨

(٢) تفسير الألوسى ٥٩/٢

الأمر بقتال المشركين

قال الله تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »[١] .

تدل هذه الآية على أن المسلمين إنما أمروا بقتال الكفار الذين يقاتلونهم : بينما دلت آيات أخرى على وجوب قتال الكفار جميعا الذين يقاتلون المسلمين والذين لا يقاتلونهم من هذه الآيات قوله تعالى « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد »[٢] .

وقوله تعالى « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة »[٣] .

والجواب عن هذا بأمور :

الأول : أن آية البقرة نزلت أولا تأمر المسلمين بقتال من يقاتلهم دون من كف عنهم، ثم بعد فترة زمنية نزلت آيتا التوبة بأمر المسلمين بقتال المشركين جميعا من يقاتل المسلمين ومن لا يقاتلهم ،وهو مايعرف بالنسخ أو بما يسميه البعض تدرجا فى التشريع .

قال الشوكانى : لا خلاف بين أهل العلم أن القتال كان ممنوعا قبل الهجرة لقوله تعالى « فاعف عنهم واصفح » وقوله « واهجرهم هجرا

---

(١) البقرة ١٩٠ (٢) التوبة ٥

(٣) التوبة ٣٦

جميلا » وقوله « لست عليهم بمصيطر » وقوله « إدفع بالتى هى أحسن » ونحو ذلك مما نزل بمكة فلما هاجر إلى المدينة أمره الله سبحانه بالقتال ، ونزلت هذه الآية «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم» وقيل: إن أول ما نزل (فى القتال) قوله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » فلما نزلت الآية كان ﷺ يقاتل من قاتله ، ويكف عمن كف عنه حتى نزل قوله تعالى « فاقتلوا المشركين » وقوله تعالى « وقاتلوا المشركين كافة[1] » .

وعلى هذا يكون معنى « ولا تعتدوا » أي بقتال من لم يقاتلكم ، أو بابتداء القتال .

الثانى : أن معنى الآية : قاتلوا الذين يناصبونكم القتال ، وهم الرجال المتهيئون للحرب دون من ليسوا من أهل المناصبة من النساء والصبيان والرهبان وأصحاب الصوامع والشيوخ الذين لا يستعين الكفار برأيهم فى الحرب .

وعلى هذا تكون الآية محكمة غير منسوخة ، ويكون معنى « ولا تعتدوا » — أى بقتال من لا يناصبونكم القتال من النساء والشيوخ والصبيان والرهبان والزمنى .

الثالث : أن المراد من الآية ما يعم سائر الكفار ، فإنهم بصدد قتال المسلمين وقصده ، فهم فى حكم المقاتلة، قاتلوا أو لم يقاتلوا ويكون

---

(١) فتح القدير ١/١٩٠

المراد بقوله « الذين يقاتلونكم » تهييج المسلمين على قتال الكفار فكأنه يقول لهم : هؤلاء الذين أمرتكم بقتالهم هم خصومكم وأعداؤكم الذين يقاتلونكم ويكون معنى « ولا تعتدوا » أى بالمثلة أو قتال المعاهد أو المفاجأة به من غير دعوة أو قتل من نهيتم عن قتله .

وواضح أنه على أى وجه من هذه الوجوه ينتفى التعارض

سورة البقرة (٧)

بين الانتقام والعفـــو

قال الله تعالى « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين[١] » .

فى هذه الآية مشروعية الانتقام ، والانتصار للنفس ، ورد العدوان بمثله، وسبب نزولها :

ما روى عن ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم ، أنه لمـا سار رسول الله ﷺ معتمرا فى سنة ست من الهجرة ، وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت ، وصدوه بمن معه من المسلمين فى ذى القعدة وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل ، فدخلها فى السنة الآتية هو ومن كان من المسلمين وأقصه الله منهم، فنزلت الآية[٢]

والمعنى ـــ كما ذكر الشوكانى : إذا قاتلوهم فى الشهر الحرام وهتكوا حرمته فاقتلوهم فى الشهر الحرام مكافأة لهم ومجازاة عـــلى فعلهم ، والحرمات : جمع حرمة ، وجمعت لأنه أراد الشهر الحرام ، والبلد الحرام وحرمة الإحرام ، والحرمة :ما منع الشرع من انتهاكه ، والقصاص : المساواة . أى كل حرمة يجرى فيها القصاص فمن هتك حرمة عليكم ، فلكم أن تهتكوا حرمة عليه قصاصا[٣]

---

(١) البقرة ١٩٤ (٢) تفسير ابن كثير ١/٢٢٨

(٣) فتح القدير ١/١٩٢

ومما هو على شاكلة هذه الآية فى الإذن بالإنتقام قوله تعالى « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور »(١)

والمراد بالمثلية : الاقتصار على المقدار الذى ظلم به ولم يزد عليه .

ومعنى : « ثم بغى عليه » أن الظالم فى الابتداء عاود المظلوم بالمظالمة بعد المرة الأولى .

و« لينصرنه الله » لينصرن الله المبغى عليه على الباغى .

وقوله تعالى « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون * وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل »(٢)

بينما أمرت آيات أخرى بالعفو والصفح ، والدفع بالتى هى أحسن ، وامتدحت بعض الآيات الإعراض عن الجاهلين ، وترك مؤاخذتهم المثل منها :

قوله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (٣)

وقوله تعالى « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »(٤)

وقوله تعالى « فاصفح الصفح الجميل »(٥)

وقوله تعالى « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن »(٦)

---

(١) سورة الحج ٦٠ (٢) الشورى ٣٩ - ٤١

(٣) الأعراف ١٩٩ (٤) الفرقان ٦٣

(٥) الحجر ٨٥ (٦) فصلت ٣٤

وقوله تعالى « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور »[١]

وقوله تعالى « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس »[٢]

والجواب

أن الحكم يختلف باختلاف من صدر منه الاعتداء والإساءة كفرا وإيمانا فالكافر المعتدى لا يكون حكمه حكم المسلم المعتدى .

والكافر تختلف مواجهته تبعا لإمكانية هذه المواجهة أو عدمها فالكفار إذا كانوا بحالة من القوة والكثرة لا يمكن معها للمسلمين مجابهتهم ومجازاتهم على السيئة بمثلها فالملائم هو الإعراض عنهم ، والدفع بالتى هى أحسن كالحالة التى كان عليها المسلمون فى مكة قبل الهجرة ، فقد كانوا أقل وأضعف من أن يردوا عدوان الكفار بمثله ، ففى هذه يكتفى بالإغضاء عن إساءاتهم ، والصبر على أذاهم .

أما إذا كان المسلمون على حالة من القوة تسمح بمجابهة الكفار ، ورد اعتدائهم ومجازاتهم على إساءاتهم فيلزم معاقبتهم ، والانتصار منهم ، كالحالة التى كان عليها المسلمون فى المدينة بعد الهجرة فقد قويت شوكتهم وكثر عددهم إلى الحد الذى يمكن معه تحقيق ما أمر به تعالى فى قوله « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » فالمطلوب إذن هو هذا ، ويدخل فى ذلك قتالهم ، وضرب أعناقهم أما فيما هو بين المسلمين بعضهم مع بعض ، فيجوز المجازاة على السيئة بالمثل ويجوز أيضا العفو ، والعفو أفضل ، وقد بينت الآيات من سورة

---

(١) الشورى ٤٣ (٢) آل عمران ١٣٤

الشورى جواز الأمرين ، ونبهت إلى أن العفو أجره على الله وأن الصبر والمغفرة من عزم الأمور ، والآيات هى :

« والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور »

على أنه إن وجد أن العفو لا تترتب عليه آثار حسنة ولا كف المعتدى عن اعتدائه — بل يتمادى فى سفهه وحمقه ، ويسترسل فى إساءته وبغيه لزم الانتصار منه ، ومجازاته بالمثل حتى ينزجر عن حرمات الله حيث إن العفو عن مظالمه — وهو يتمادى ويزداد فيها — يؤدى به إلى الجرأة على الله ، والاستخفاف بحقوق العباد ، وفى هـذا من الشر ما فيه .

سورة البقرة :

من يكره على الإسلام ومن لا يكره

جاء فى القرآن الكريم من الآيات ما يفيد أنه لا يكره أحد من غير المسلمين على الدخول فى الإسلام منها قوله تعالى:

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم »(١)

وقوله تعالى « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »(٢)

وقد جاءت آيات أخرى تفيد أن الكفار يجبرون على الدخول فى الإسلام إن لم يدخلوا فيه طائعين منها قوله تعالى « يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير »(٣)

وقوله تعالى « قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون »(٤)

---

(١) البقرة ٢٥٦ . ومعنى « لا إكراه فى الدين » لا إجبار على الدين الحق وهو الإسلام ، « قد تبين الرشد من الغى » قد تميز الإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة ، فمن يكفر بالطاغوت » بالشيطان أو الأصنام « بالعروة الوثقى » بالمعتصم الأشد « لا انفصام لها » لا انقطاع للعروة . والمقصود : فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد عقد لنفسه من الدين عقداً لا تحمله شبهة (تفسير النسفى) .

(٢) يونس ٩٩

(٣) التحريم ٩ و التوبة ٧٣

(٤) الفتح ١٦

والجواب عن ذلك بواحد من هذه الأقوال

الأول أن آية « لا إكراه فى الدين » فى أهل الكتاب خاصة ، فهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »[1]

والذين يكرهون أهل الأوثان فلا يقبل منهم إلا الإسلام وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ .

هذا قول الشعبى وقتادة والحسن والضحاك .

ويؤيده — كما ذكر القرطبى — ماروواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمى أيتها العجوز تسلمى . إن الله بعث محمدا بالحق قالت : أنا عجوز كبيرة ، والموت إلى قريب . فقال عمر : اللهم أشهد ، وتلا ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ وسبب النزول أيضا وهو كما قال السدى : نزلت الآية فى رجل من الأنصار يقال له أبو حصين . كان له ابنان ، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت فلما أرادوا الخروج أتاهم ابنا الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا ومضيا معهم إلى الشام فأتى أبوهما رسول الله ﷺ مشتكيا

---

(١) التوبة ٢٩

أمرهما ، ورغب فى أن يبعث رسول الله ﷺ من يردهما ، فنزلت ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾[١] .

وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : كانت المرأة تكون مقلاتا[٢] فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده ، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله عز وجل ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾[٣] .

ويضيف القرطبى قوله : وفى رواية : إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن فيه ، وأما إذا جاء الله بالإسلام ففكرههم عليه ، فنزلت ﴿لا إكراه فى الدين﴾ من شاء التحق بهم ، ومن شاء دخل فى الإسلام ، ويحكى عن النحاس قوله : قول ابن عباس فى هذه الآية أولى الأقوال لصحة إسناده ، وأن مثله لا يؤخذ بالرأى[٤] وسبب النزول هذا وإن كان خاصا بقوم من الأنصار ، إلا أن حكمها عام يشمل كل من دان بدين أهل الكتاب والآية على هذا القول ليست منسوخة .

الثانى : أن آية ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ منسوخة ، لأن النبى ﷺ قد أكره العرب على دين الإسلام ، وقاتلهم ، ولم يرض منهم إلا بالإسلام ، والناسخ لها قوله تعالى ﴿ياأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين﴾

---

(١) تفسير القرطبى ٣/٢٨٠

(٢) المقلات التى لا يعيش لها ولد .

(٣) تفسير ابن جرير ٣/١٤

(٤) تفسير القرطبى ٣/٢٧٠

وقال تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ .

وذهب إلى هذا القول كثير من المفسرين ، وهو المحكى عن ابن مسعود وغيره .

الثالث : أن المراد : ليس فى الدين إكراه من الله تعالى ، وقسر ، بل مبنى الأمر على التمكين والاختيار ، ولولا ذلك لما حصل الابتلاء ، ولبطل الامتحان فالآية نظير قوله تعالى ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (٢) وإليه ذهب القفال (٣) .

وأرجح الأقوال الثلاثة أولها لما ذكر فى سبب نزول الآية ولا يعترض عليه بأن فيه تخصيص الآية «لا إكراه فى الدين» بأهل الكتاب والآية تفيد العموم - فتشمل أهل الحرب أيضا - لأن النكرة فى سياق النفى وتعريف الدين يفيدان العموم والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لا يعترض بهذا ، لأن عموم الآية قد خص بما ورد من آيات فى إكراه أهل الحرب من الكفار على الإسلام .

---

(١) التوبة ١٢٣ (٢) الكهف ٢٩

(٣) تفسير الآلوسى ١٣/٣

المدد بالملائكة يوم بدر

فى القرآن الكريم مايدل على أن الله تعالى أمد المسلمين بالملائكة يوم بدر ، فذكر تعالى فى سورة الأنفال أن هذا المدد كان بألف من الملائكة قال تعالى ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين [١] ﴾ .

وفى سورة آل عمران أن المدد كان بثلاثة آلاف من الملائكة ، ثم بخمسة آلاف قال تعالى ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ [٢] .

الجواب :

أن المفسرين اختلفوا فى الوعد بمدد الملائكة أكان يوم بدر أم يوم أحد ؟ على قولين : الأول أنه كان يوم بدر ، وقوله ﴿ إذ تقول للمؤمنين ﴾ ظرف لقوله ﴿ نصركم ﴾ أى نصركم الله وقت مقالتكم هذه وهو يوم بدر .

والجمع بين آية الأنفال التى فيها أن المدد كان بألف ، وبين مافى آل عمران مما يفيد أن المدد كان بأكثر - على هذا القول .

---

(١) الأنفال ٩ (٢) آل عمران ١٢٣ — ١٢٥

بما قاله الربيع بن أنس: أن الله تعالى أمد المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف.

والتنصيص فى آية الأنفال على الألف لا ينافى الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله فيها « مردفين » بمعنى يردفهم غيرهم، ويتبعهم ألوف أخر مثلهم[1].

ويكون معنى « يمددكم ربكم بخمسة آلاف » بتمام خمسة آلاف، وهذا القول هو الأرجح.

أو بما ذكره بعض العلماء من ضم العدد القليل إلى الكثير فقال: لأن الله تعالى ذكر الألف فى سورة الأنفال، وذكر فى سورة آل عمران ثلاثة آلاف وخمسة آلاف فيكون المجموع تسعة آلاف[2].

أو بما ذهب إليه بعضهم من أن المدد كان بأربعة آلاف. أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الشعبى: أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربى يمد المشركين، فشق ذلك عليهم فأنزل الله « ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف » إلى قوله « مسومين » قال: فبلغت كرزا الهزيمة فلم يمد المشركين، ولم يمد المسلمين بالخمسة.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٠١

والاستغاثة طلب الغوث وهو التخليص من المكروه، و « مردفين »: قرىء بكسر الدال وفتحها، فالكسر على أنهم أردفوا غيرهم، والفتح على أنه أردف كل ملك ملكا آخر يقال: ردفه إذا تبعه، وأردفه إياه إذا أتبعته.

(٢) تفسير الخازن ١/٤١٥

وذلك بناء على تعليق الإمداد بالخمسة بمجموع الأمور الثلاثة وهي: الصبر والتقوى ، وإتيان أصحاب كرز ، وقد فقد الأمر الثالث فلم يوجد الإمداد بالخمسة ، وفي رواية ابن جرير عن الشعبي أنه قال « ويأتوكم من فورهم هذا » يعني كرزا وأصحابه « يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » فبلغ كرزا وأصحابه الهزيمة فلم يمدهم ولم تنزل الخمسة ، وأمدوا بعد ذلك بألف فهم أربعة آلاف (١) .

وعلى أي من هذه الأقوال فلا تعارض بين الآيات .

---

(١) تفسير ابن جرير ٤/٧٦

ومعنى آيات آل عمران باختصار : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » وصف المؤمنين بالذلة هنا بمعنى : قلة عددهم وعدتهم ، ووصفهم بالعزة في قوله «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» بمعنى قوتهم وكثرة عددهم ، فلا تعارض أو : أن الذلة باعتبار حال المسلمين من قلة العدد والعدة ، والعزة باعتبار نصر الله وتأييده لهم « فاتقوا الله » في الثبات مع رسوله « لعلكم تشكرون » بتقواكم ما أنعم الله به عليكم من النصر . « إذ تقول للمؤمنين » ظرف لنصركم على أن ذلك يوم بدر « ألن يكفيكم أن يمدكم » إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة ، وجيء بلن لتأكيد النفي ، والكفاية : سد الخلة والقيام بالأمر . والإمداد : في الأصل : إعطاء الشيء حالا بعد حال و « منزلين » للنصرة . « بلى » إيجاب لما بعد « لن » أي يكفيكم الإمداد بهم « إن تصبروا » على القتال « وتتقوا » خلاف الرسول صلى الله عليه وسلم ، « ويأتوكم » يعني المشركين « من فورهم هذا » من حالتهم هذه التي لا تريث فيها « يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة » في حال إتيانهم لا يتأخر نزول الملائكة عن إتيان المشركين . يعني : أن الله تعالى يعجل بالنصر إن صبروا واتقوا «مسومين» معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامة يعرفون بها في الحرب .

الثانى : أنه كان يوم أحد فالوعد فى قوله « إذ تقول للمؤمنين » متعلق بقوله « وإذ غدوت من أهلك » أى بدل ثان من إذ غدوت ، وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم .

وعلى هذا القول فلا تعارض ، لأن الإمداد المذكور فى الأنفال فى يوم بدر والإمداد المذكور فى آل عمران فى يوم أحد .

على أن الإمداد بالملائكة فى أحد لم يحصل ، لا بالخمسة آلاف ولا بالثلاثة لعدم توفر شرط الإمداد ، وهو صبر المسلمين ، وتقواهم وهم لم يصبروا فى مواجهة العدو ، بل فروا ، ولم يتقوا حيث خالفوا أمر رسول الله ﷺ فلم يمدوا بملك واحد .

أخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله « بلى إن تصبروا وتتقوا » الآية قال هذا يوم أحد ، فلم يصبروا ولم يتقوا ، فلم يمدوا يوم أحد ، ولو أمدوا لم يُهزموا يومئذ[1] .

---

(١) تفسير ابن جرير ٤/٧٩ .

سورة الأنفال (٢) :

الأمانان من العذاب : وجود الرسول فى قومه واستغفارهم

قال الله تعالى ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هـذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون . وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولـكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (١)

الآية الأولى تفيد أن الـكفار طلبوا إنزال العذاب بهم عقابا لهم على إنكارهم أن القرآن كلام الله ، إن كان القرآن كلام الله ، وأن يكون العذاب برميهم بحجارة من جهة السماء ، أو بنوع آخر من جنس العذاب الأليم فكان الرد عليهم بأن الله تعالى لا يعذبهم ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ، مقيم فيهم ، لأنه بعثه رحمة للعالمين ، وسنة الله تعالى أن لا يعذب قوما مادام نبيهم بين أظهرهم .

كذلك لا يعذبهم الله وهم يستغفرون .

ولا تعارض بين ماتفيده آية ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ وماتفيده الآية التالية لهـا وهى ﴿ ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ .

وذلك لواحد مما يأتى :

الأول : أن العذاب لا ينزل بهم مادام النبى مقيما فيهم فإذا خرج

---

(١) الأنفال ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٤ .

من بين أظهرهم تعرضوا للعذاب ، وقد خرج صلى الله عليه وسلم من بينهم مهاجراً فارتفع بخروجه مهاجراً الأمان الأول من العذاب ، كما أن العذاب لا ينزل بهم فى حال استغفارهم من الكفر، وصيرورتهم مؤمنين لكنهم لم يستغفروا من الكفر بل أصروا عليه ، ورفضوا الإيمان ، صدوا عن المسجد الحرام فارتفع الأمان الثانى من العذاب وتعرضوا له لكفرهم وصدهم عن المسجد الحرام ﴿ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ .

وبعد خروج الرسول صلى الله عليه وسلم من بينهم مهاجرا ، وإصرارهم على الكفر عذبهم الله تعالى فى الدنيا بالقتل والأسر والهزيمة يوم بدر . هذا بجانب ما أعد للمقيمين على الكفر حتى الموت من عذاب أليم فى نار الجحيم فى الآخرة .

الثانى : أن المراد باستغفارهم : استغفار المؤمنين الذين بقوا فى مكة لم يهاجروا ، وقد أسند الاستغفار الصادر من المؤمنين إلى مجموع أهل مكة جريا على طريقة إسناد ماصدر من البعض إلى الكل - كما فى قوله ﴿ فعقروا الناقة ﴾ مع أن العاقر واحد منهم بدليل قوله﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ .

والمعنى : أنه بعد خروج النبى صلى الله عليه وسلم مهاجراً كان استغفار المؤمنين المستضعفين بمكة دافعاً العذاب الدنيوى عن أهل مكة وقوله تعالى ﴿ ومالهم ألا يعذبهم الله ﴾ معناه : بعد خروج المؤمنين المستضعفين منها بتسليط رسوله والمؤمنين عليهم ففتحوا مكة

أخرج الطبرى عن طريق ابن أبزى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فأنزل الله تعالى ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ ثم خرج إلى المدينة فأنزل الله ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ وكان من بقى من المسلمين بمكة يستغفرون، فلما خرجوا أنزل الله ﴿ ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ الآية . فأذن الله فى فتح مكة ، فهو العذاب الذى وعدهم الله تعالى [١]

وقال ابن كثير : فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لوقع بهم البأس الذي لا يرد ، لكن دفع عنهم بسبب أولئك كما قال تعالى فى يوم الحديبية [٢] « هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما » [٣]

المعنى : أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم فقيل: ولولا كراهة أن تهلكوا ناسا مؤمنين بين ظهرانى المشركين وأنتم غير عارفين بهم ، فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة لما كف أيديكم عنهم .

ومعنى « لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا . » لو تفرقوا وتميز المسلمون

---

(١) تفسير الطبرى ١٣/٥٠٩ ، ٥١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٣) الفتح ٢٥ .

من الكافرين لعذبنا الكافرين من أهل مكة بالسيف عذابا أليما.[١]

القول الثالث :

أن المراد بقوله « وهم يستغفرون » كفار مكة ، وأن استغفارهم هو ندمهم على ماصدر منهم من طلب العذاب — كما ذكرت الآية الأولى — وأنهم قالوا : غفرانك اللهم . والله تعالى دفع عنهم العذاب الدنيوى بسبب ذلك ، أما عذاب الآخرة فهو واقع بهم ماداموا مصرين على الكفر حتى الموت .

روى ابن جرير بسنده عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالا : قالت قريش بعضها لبعض : محمد أكرمه الله من بيننا « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك » الآية . فلما أمسوا ندموا على ماقالوا فقالوا غفرانك اللهم . فأنزل الله «وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »[٢] إلى قوله « لايعلمون » .

ويستأنس ابن حجر لهذا القول بما رواه الترمذى من حديث أبى موسى رفعه قال « أنزل الله على أمتى أمانين » فذكر هذه الآية ، قال « فإذا أمضيت تركت فيهم الاستغفار » ثم يمضى قائلا : وهو يقوى (هذا القول) والحمل عليه أولى وأن العذاب حل بهم لما تركوا الندم على ما وقع منهم ، وبالغوا فى معاندة المسلمين ومحاربتهم وصدهم عن المسجد الحرام[٣].

---

(١) تفسير النسفى ١٦٢/٤ (٢) تفسير ابن جرير ٥١٢/١٣ .
(٣) فتح البارى لابن حجر ٣٠٩/٨

القول الرابع :

أن معنى قوله « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » وما كان الله معذبهم وقد سبق فى علمه أن منهم من يستغفر الله من كفره ، ويسلم وقوله « وما لهم ألا يعذبهم الله » فى الذين قضى الله أن لا يسلموا كأبى جهل ومن على شاكلته الذين عذبوا بالقتل على أيدى المسلمين وهناك قول بأن آية « وما لهم ألا يعذبهم الله » ناسخة للآية التى قبلها رواه ابن جرير عن عكرمة والحسن البصرى قالا : قال فى الأنفال « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » فنسختها الآية التى تليها « وما لهم ألا يعذبهم الله إلى قوله - فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » فقتلوا بمكة وأصابهم فيها الجوع والحصر [1]

وقد ضعف هذا القول بعض العلماء [2] لأن قوله تعالى « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » خبر من الله بعدم تعذيبه لهم فى حالة استغفارهم ، والخبر لا يجوز نسخه شرعا بإجماع المسلمين .

وأقوى هذه الأقوال الأول ، ثم الثانى . وأما ماعداهما ففيه ضعف ومعنى قوله « وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون » .

وما كان المشركون الذين يصدون المؤمنين عن الصلاة فى المسجد الحرام ، والطواف به أهلا للمسجد الحرام ، وإنما أهله النبى ﷺ وأصحابه وكل من اتقى الله تعالى .

---

(١) تفسير ابن جرير ١٣/٥١٧

(٢) محمد الأمين الشنقيطى فى كتابه دفع إيهام الاضطراب ص ١٤١

روى الحافظ أبو بكر ابن مردويه فى تفسير هذه الآية بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ من أولياؤك ؟ قال : « كل تقى » وتلا رسول الله ﷺ « إن أولياؤه إلا المتقون[1] » كما أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض قال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض[2] ﴾ .

ومعنى أن بعضهم أولياء بعض أنهم يتناصرون ويتعاضدون كما فى الحديث الصحيح «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه .

ولا يعارض هذه الآية ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا[3] ﴾ من نفى الموالاة بين المسلمين وبينهم ما داموا لم يهاجروا .

لأن آية الأنفال — كما ذكر ابن كثير — فى نفى الموالاة بالنسبة للمغانم وخمسها . قال هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا بل أقاموا فى بواديهم فهؤلاء ليس لهم فى المغانم نصيب ولا فى خمسها إلا ما حضروا فيه القتال[4] .

وذكر آخرون : أن المنفى — فى آية الأنفال — ولاية الميراث .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٠٦
(٢) التوبة ٧١
(٣) الأنفال ٧٢
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٢٩

فقد كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالمؤاخاة التى جعلها النبى ﷺ بينهم ، فمن مات من المهاجرين ورثه أخوه الأنصارى دون قريبه المؤمن الذى لم يهاجر حتى نسخ ذلك بقوله تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ الآية .

وذكر البعض انه لا مانع من تناول آية الأنفال للجميع ، فيكون المراد منها نفى الميراث بينهم ، ونفى القسم لهم فى الغنائم والخمس .

سـورة آل عمران (١) .

القرآن محكم ومتشابه

الآية السابعة من سورة آل عمران وهى قوله تعالى ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ .

تفيد أن من القرآن محكما ومنه متشابها .

بينما أفادت الآية الأولى من سورة هود أنه كله محكم وهى قوله تعالى ﴿ ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ .

وأفادت الآية الثالثة والعشرون من سـورة الزمر أن كله متشابه وهى قوله تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى ﴾ .

وظاهر هذا التعارض ، والحقيقة أنه لا تعارض حيث يمكن الجمع بين هذه الآيات على النحو التالى :

فإن معنى أنه كله محكم : أنه من الإحكام الذى هو الإتقان فى ألفاظه ومعانيه ، وأنه كله حق وصدق ليس فيه عبث ولا هزل .

ومعنى كونه متشابها : أن آياته يشبه بعضها بعضا فى الحسن والصدق والحق ، والسلامة من العيوب .

وأما معنى أن بعضه محكم وبعضه متشابه فقد اختلف العلماء فى تفسير المحكم والمتشابه على أقوال :

أحدها : أن المحكم ما عرف تأويله ، وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه : ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل ، قالوا : وذلك نحو الحروف المقطعة فى أوائل السور .

ثانيها : المحكم : ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه : ما يحتمل وجوها فإذا ردت إلى وجه واحد ، وترك الباقى صار المتشابه محكما .

ثالثها : أن المحكم ناسخه ، وحرامه وحلاله وفرائضه وما نؤمن به ونعمل عليه . والمتشابه : منسوخه وأمثاله وأقسامه ومانؤمن به ولا نعمل به .

رابعها : المحكم الناسخ ، والمتشابه المنسوخ .

خامسها : المحكم : ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره . والمتشابه ما يرجع فيه إلى غيره .

قال الشوكانى ـــ بعد حكاية هذه الأقوال ـــ : والأولى أن يقال : إن المحكم هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة إما باعتبار نفسه ، أو باعتبار غيره . والمتشابه : ما لا يتضح معناه ، أو لا تظهر دلالته لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره[1] .

فظهر من هذا أنه لا تعارض بين هذه الآيات ، وأن القرآن الكريم يصدق عليه كله أنه محكم ، وأنه كله متشابه ، وأن بعضه محكم وبعضه متشابه ، وكل باعتبار .

وأما أسباب مجىء المتشابه فى القرآن ، مع أنه نزل لبيان الدين وإرشاد العباد وهدايتهم ، وهذا يتحقق بكونه كله محكماً فهو ـ كما ذكر العلماء ـ أربعة :

---

(١) فتح القدير ١/٣١٤

أحدها : أن القرآن جاء بألفاظ العرب ولغاتهم ، وكلام العرب على ضربين : أحدهما الإيجاز للاختصار ، والموجز الذى لا يخفى على سامعه ولا يحتمل غير ظاهره . والإطالة لبيان المراد والتوكيد . الضرب الثانى المجاز والكنايات والإشارات والتلويحات ، وإغماض بعض المعانى . وهذا الضرب هو المستحسن عند العرب والبديع فى كلامهم ، فأنزل الله تعالى القرآن على هذين الضربين ليتحقق بجزهم التام عن الإتيان بمثله .

الثانى أن يشتغل أهل العلم والنظر بردهم المتشابه إلى المحكم ، فيزداد اهتمامهم بالبحث عن معانيه ، فيثابون على تعبهم كما أثيبوا على عباداتهم ولو أنزل القرآن كله محكما لاستوى فى معرفته العالم والجاهل ولم يفضل العالم على غيره .

الثالث . أن أهل كل علم يجعلون فى علومهم معانى غامضة ، ومسائل دقيقة ليختبروا بذلك أذهان المتعلمين منهم على انتزاع الجواب ، فلما كان ذلك حسنا عند العلماء جاز أن يكون ما أنزل الله تعالى من المتشابه على هذا النحو .

الرابع : اختبار الله تعالى عباده بالمتشابه ، ليقف المؤمن عنده ، ويرد علمه إلى عالمه فيعظم بذلك ثوابه ، ويرتاب به المنافق ، فيداخله الزيغ ، فيستحق بذلك العقوبة ، كما ابتلى بنو إسرائيل بالنهر [1] والله أعلم

---

(١) لباب التأويل فى معانى التنزيل للخازن ١/٣١٩ ، ٣٢٠

سورة آل عمران (٢)

خلق الله وخلق الآدميين

قال الله تعالى ـ عن عيسى عليه السلام ﴿ أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ﴾ [١] الآية

فهذا يوهم ظاهره أن بعض المخلوقين ربما خلقوا .

ونظير هذه الآية قوله تعالى :﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثانا أو تخلقون إفكا ﴾ [٢] .

بينما المعلوم عقلا ونقلا أن الله تعالى وحده هو الخالق لكل شيء ولا خالق سواه . ومن الآيات فى ذلك قوله تعالى ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾ [٣]

وقوله تعالى ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [٤]

والجواب عن ذلك

أن الخلق الحقيقى قد تفرد به الله عز وجل ، ولا موجد سواه .

وأما معنى خلق عيسى كهيئة الطير فهو تصويره شيئا من الطين على صورة الطير لا أنه أوجد من الطين طيرا ، ومعنى ﴿ تخلقون إفكا ﴾ تكذبون .

قال الزركشى : لم يجعل قوله تعالى ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ معارضة

---

(١) آل عمران ٤٩

(٢) العنكبوت ١٧

(٣) الزمر ٦٢ ٦٢

(٤) القمر ٤٩

لقوله ﴿ وتخلقون إفكا ﴾ وقوله ﴿ وإذ تخلق من الطين ﴾ وقوله ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (١)

لقيام الدليل العقلى أنه لاخالق غير الله تعـالى، فيتعين تأويل ماعارضه فيؤول قوله « وتخلقون » بمعنى تكذبون لأن الإفك نوع من الكذب وقوله « وإذ تخلق من الطين » أى تصور (٢)

---

(١) المؤمنون ١٤

(٢) البرهان ٢/٥١

سورة آل عمران (٣) :

توفى عيسى عليه السلام ورفعه

قال الله تعالى « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين * إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى »[١] الآية

يتوهم من ظاهر قوله « إنى متوفيك » وفاة عيسى عليه السلام أى موته بينما أفادت آيات أخرى أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب بل رفعه الله إليه وهى قوله تعالى :

« وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما »[٢]

والجواب عن هذا بما يأتى :

أن الصحيح أن الله تعالى قد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء من غير وفاة وهو الذى رجحه كثير من المفسرين ، واختاره ابن جرير الطبرى ، فقد روى عن الحسن قوله : قال رسول الله ﷺ لليهود : « إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة »

وعندما رجح أن معنى « إنى متوفيك ورافعك إلى » إنى قابضك من الأرض ورافعك إلى قال : لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال « ينزل عيسى بن مريم فيقتل الدجال . ثم يمكث فى الأرض مدة

---

(١) آل عمران ٥٤ ، ٥٥ (٢) النساء ١٥٧ ، ١٥٨

ـــ ذكرها ـــ اختلفت الروايات فى مبلغها ، ثم يموت فيصلى عليه المسلمون ويدفنونه .

ثم يقول : ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله عز وجل لم يكن بالذى يميته ميتة أخرى فيجمع عليه ميتتين ، لأن الله عز وجل إنما أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يميتهم ثم يحييهم كما قال « الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء » (١)

وعلى هذا يكون الكلام فى قوله « إنى متوفيك ورافعك إلى » على طريقين :

الطريق الأول : أن هذا من المقدم والمؤخر ، أى رافعك إلى ومتوفيك أخرجه ابن أبى حاتم عن قتادة.

وقال الفراء : إن فى الكلام تقديما وتأخيرا تقديره : إنى رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء .

وذكر الخازن أنه قيل لبعضهم : هل تجد نزول عيسى إلى الأرض فى القرآن ؟

قال نعم . قوله تعالى « وكهلا » وذلك لأنه لم يكتهل فى الدنيا ، وإنما معناه ، وكهلا بعد نزوله من السماء » (٢)

الطريق الثانى : أن الآية على ظاهرها من غير تقديم ولا تأخير ، وذكروا فى معناها وجوها .

---

(١) تفسير ابن جرير ٣/ ٢٨٩ ، ٢٩١ (٢) تفسير الخازن ١/ ٣٥٦

الأول : أن المعنى : إنى قابضك من الأرض إلىّ ورافعك من غير موت . ومعنى الوفاة القبض ، يقال : توفيت من فلان مالى عليه بمعنى قبضته واستوفيته .

الثانى : أن المعنى :إنى مستوفى أجلك قال الزمخشرى : معناه إنى عاصمك من أن يقتلك الكفار ، ومؤخرك إلى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لاقتلا بأيديهم (١)

الثالث : أن المراد بالوفاة هنا النوم ومعنى الآية على هذا : إنى منيمك ورافعك فى النوم ، وكان عيسى عليه السلام قد نام ، نرفعه الله وهو نائم لئلا يلحقه خوف ، ومنه قول الله عز وجل ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها﴾ وكما قال تعالى ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل﴾ الآية : وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا » الحديث .

وقال تعالى ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » .

والضمير فى قوله «قبل موته» عائد على عيسى عليه السلام أى وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم ، لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام (٢) .

---

(١) الكشاف ٤٣٢/١

(٢) تفسير ابن كثير ٣٦٦/١

الرابع : قال أبو بكر الواسطى معناه : إنى متوفيك عن شهواتك وعن حظوظ نفسك ورافعك إلى ، ذلك أن عيسى عليه السلام لما رفع إلى السماء صارت حالته حالة الملائكة فى زوال الشهوة .

الخامس : أن معنى التوفى : أخذ الشىء وافياً ، ولما علم الله تعالى أن من الناس من يخطر بباله أن الذى رفعه الله إليه هو روحه دون جسده ، كما زعمت النصارى : أن المسيح رفع لاهوته يعنى روحه ، وبقى فى الأرض ناسوته يعنى جسده فرد الله عليهم بقوله « إنى متوفيك ورافعك إلى » فأخبر الله تعالى أنه رفع تمامه إلى السماء بروحه وجسده جميعاً[1] .

هذا هو معنى « إنى متوفيك » وأما القول بأنه توفاه ساعات أو أياماً ، ثم أحياه فهو ضعيف للآيات والأحاديث السابقة ومعنى « ومطهرك من الذين كفروا » ومطهرك من سوء جوارهم وخبث صحبتهم .

«وجاعل الذين اتبعوك » أى المسلمين لأنهم متبعوه فى أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى «فوق الذين كفروا» بك «إلى يوم القيامة» يعلونهم بالحجة وفى أكثر الأحيان بالحجة والسيف « ثم إلى مرجعكم » فى الآخرة « فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » من الحق فى أمر عيسى ثم بين ذلك الحكم فيما بعدها من آيات .

---

(١) تفسير الخازن ١/٣٥٦

سورة آل عمران (٤)

إبراهيم عليه السلام لم يكن من المشركين

قال الله تعالى « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين »[١] .

هذه الآية الكريمة وأمثالها فى القرآن تدل على أن إبراهيم عليه السلام لم يكن مشركا فى أى وقت ، لأن نفى الكون الماضى فى قوله «وما كان من المشركين » يدل على استغراق النفى لجميع الزمن الماضى .

وقد جاء فى آيات أخرى مايوهم أنه اعتقد ربوبية الكوكب والقمر والشمس ، وذلك فى قوله تعالى « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون[٢] » .

وفى الإجابة عن هذا

نستبعد أولا القول القائل بأن ذلك كان من إبراهيم عليه السلام فى مقام النظر والاستدلال لنفسه ، والبحث عن رب يعبده ، وأنه وقت هذا القول كان مسترشداً طالبا للتوحيد حتى وفقه الله ، حتى قيل : إن ذلك كان فى طفولته قبل قيام الحجة عليه فلم يكن كفراً .

نستبعد هذا القول لعدم استناده إلى أدلة ، ولعدم اقتناع العقل به

---

(١) آل عمران ٦٧ (٢) الأنعام ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨

ولمعارضته لقول الجمهور الآتى المستند إلى الأدلة القوية المقنعة .

قول الجمهور .

إن هذا القول من الخليل عليه السلام كان فى مقام المناظرة لقومه.

أدلة الجمهور .

الأول : أن القول بربوبية الكواكب كفر والكفر غير جائز على الأنبياء بالإجماع .

قال الخطيب الشربينى : لايجوز أن يكون لله تعالى رسول يأتى عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله موحد،وبه عارف ومن كل معبود سواه برىء[1] .

الثانى : أن الله تعالى أخبر عنه قبل هذه الواقعة أنه قال لأبيه آزر « أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » فهذا يدل على أن إبراهيم عليه السلام عرف ربه قبل هذه الواقعة إذ لايدعو غيره إلى الله إلا إذا كان عارفا به موحداً له .

الثالث : أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض ، وقد أكسبته تلك الإراءة يقيناً ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ ثم قال بعده ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكبا﴾ الآيات ، والفاء تقتضى الترتيب فدل هذا على أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم من الموقنين العارفين بربهم[2] .

---

(١) السراج المنير ١/٣٥٦ (٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازى ٤/٧٧، ٧٨

الرابع : النص فى أكثر من آية على أن هذه المحاجة كانت مع قومه ، منها قوله ﴿ياقوم إنى برىء مما تشركون﴾ وقوله ﴿ وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان .. ﴾ [١] فهذا يدل على أنه كان فى هذا المقام مناظراً لقومه — فيما كانوا عليه من الشرك ، لا ناظر لنفسه .

الخامس : إخبار الله تعالى عنه بأنه آتاه رشده من قبل ، وكان عالما باستحقاقه الرسالة لتجنبه الشرك ، وسوء الفعال ، وقبيح الصفات قال تعالى ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين .. إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون .. ﴾ [٢] الآيات .

وقال عنه أيضا ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ [٣] أى لم يشرك قط كما قال القرطبى .

وأضاف ابن كثير مستدلا على هذا قوله : قد ثبت فى صحيح مسلم عن عياض بن حماد أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى « إنى خلقت عبادى حنفاء » فإذا كان هذا فى حق سائر الخليقة ، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذى جعله الله أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ناظراً فى هذا المقام ، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة ، والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب [٤] .

---

(١) الأنعام ٨٠

(٢) الأنبياء ٥١ ، ٥٢

(٣) الصافات ٨٤

(٤) تفسير ابن كثير ٢/١٥١ — ١٥٢

فقد ثبت بهذه الأدلة أن الخليل عليه السلام كان فى هذا المقام مناظراً قومه ، لا ناظراً .

ويكون قوله عليه السلام عن كل من الكوكب والقمر والشمس: « هذا ربى » من قبيل استدراج الخصم بإظهار موافقته ليسمع الحجة ، ويتم إلزامه فإنه عليه السلام كان قد عرف من تقليدهم لأسلافهم ، وبعد طباعهم عن قبول الحق أنه لو صرح بالدعوة إلى الله تعالى ، وإبطال ربوبية الكواكب من أول الأمر لما قبلوا قوله ، ولما تمكن من إقامة الدليل على إبطال معتقدهم ، فعمد إلى هذا الأسلوب الذى يحقق مقصوده قال أبو السعود : لو صدع (إبراهيم) بالحق من أول الأمر كما فعله فى حق عبادة الأصنام لتمادوا فى المكابرة والعناد ولجوا فى طغيانهم يعمهون[1].

هذا هو الجواب الأقوى .

وهناك أجوبة أخرى فيها شىء من الضعف منها .

٢ ـ أن المراد الاستفهام على سبيل الإنكار ، وأسقط حرف الاستفهام .

والمعنى : أهذا ربى . وضعفه من جهة أن حذف حرف الاستفهام لا يحسن إلا إذا كان فى الكلام دلالة عليه ، والآية ليس فيها ذلك .

٣ ـ أن الخليل عليه السلام قال ذلك على سبيل الاستهزاء والتوبيخ للقوم وضعفه من جهة أن أسلوب الاستهزاء لا يوصل إلى المقصود من إبطال معتقد القوم .

---

(١) تفسير أبو السعود ٣/١٥٣

٤ – أن معنى قول الخليل عليه السلام ﴿هذا ربى﴾ فى زعمكم واعتقادكم .

٥ – أن القول مضمر فيه ، والتقدير : قال : يقولون : هذا ربى . أى هذا هو الذى يدبرنى ويربينى ، وهذان القولان الأخيران من الضعف بمكان وأرجح الأقوال جميعها الأول .

سورة آل عمران (٥) :

قبول التوبة قبل حضور الموت

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون[١] ﴾ .

تفيد هذه الآية الكريمة أن الكافرين بعد إيمان المزدادين كفراً لا يقبل الله توبتهم إذا تابوا ، لأنه عبر بلن الدالة على نفي الفعل في المستقبل .

مع أنه قد جاءت آيات أخر تدل على قبول توبة كل تائب قبل حضور الموت منها قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف[٢] ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون[٣] ﴾ .

وصرح تعالى بقبول توبة المرتدين في الآيات السابقة على هذه الآية قال تعالى : ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين * أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم[٤] ﴾ .

---

(١) آل عمران ٩٠ (٢) الأنفال ٣٨

(٣) الشورى ٢٥ (٤) آل عمران ٨٦ — ٨٩

والجواب بواحد من هذه الأوجه

الأول : أن معنى ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ عند حضور الموت ، وأما التوبة قبل ذلك فتقبل ، يدل لهذا قوله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار * أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما [1] ﴾ .

فالآية صريحة فى عدم قبول توبة من تاب عند حضور الموت والميت على كفره .

وأيضا : فإن قوله : ﴿ ثم ازدادوا كفراً ﴾ يشير إلى عدم توبتهم فى فترة ما قبل حضور الموت .

« ذكر ابن جرير هذا الوجه فقال : قال بعضهم : عنى الله عز وجل بقوله : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أى ببعض أنبيائه الذين بعثوا قبل محمد ﷺ « بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا » بكفرهم بمحمد « لن تقبل توبتهم » عند حضور الموت ، وحشرجته بنفسه .

وقد عزاه إلى الحسن وقتادة ، وعطاء الخراسانى [2] .

الثانى : أن الآية فيمن كفروا بنبينا ﷺ ، ثم ازدادوا كفرا أى ذنوبا ، ثم أرادوا التوبة من الذنوب لا من الكفر فهؤلاء لا تقبل توبتهم من الذنوب وهم على الكفر مقيمون .

حكى هذا القول أيضاً ابن جرير فقال : معنى ذلك : إن الذين

---

(١) النساء ١٨ (٢) تفسير ابن جرير ٣/٣٤٢ .

كفروا من أهل الكتاب بمحمد بعد إيمانهم بأنبيائهم ﴿ ثم ازدادوا كفراً ﴾ يعنى ذنوبا ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ من ذنوبهم وهم على الكفر مقيمون .

وعزاه إلى رفيع وأبى العالية ، ورجحه فقال :

وأولى الأقوال بالصواب أن يكون تأويل الآية : إن الذين كفروا من اليهود بمحمد صلى الله عليه وسلم عند مبعثه بعد إيمانهم به قبل مبعثه[1] . ثم ازدادوا كفراً بما أصابوا من الذنوب فى كفرهم ومقامهم على ضلالتهم لن تقبل توبتهم من ذنوبهم التى أصابوها فى كفرهم حتى يتوبوا من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويراجعوا التوبة منه بتصديق ما جاء به من عند الله .

وعلل ذلك بقوله : إن معنى ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ لن تقبل توبتهم مما ازدادوا من الكفر على كفرهم بعد إيمانهم ، لا من كفرهم ؛ بعد لأن الله تعالى وعد أن يقبل التوبة من عباده فقال :

﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ﴾ فمحال أن يقول عز وجل : أقبل ولا أقبل فى شىء واحد ، وإذا كان ذلك كذلك ، وكان من حكم الله فى عباده أنه قابل توبة كل تائب من كل ذنب ، وكان الكفر بعد الإيمان أحد تلك الذنوب التى وعد قبول التوبة منها بقوله : ﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾ علم أن المعنى الذى لا تقبل التوبة منه غير المعنى الذى تقبل التوبة منه . وإذا كان ذلك كذلك فالذى لا تقبل منه التوبة هو الازدياد على الكفر بعد

---

(١) يعنى بنعته وصفته

الكفر ، لا يقبل الله توبة صاحبه ما أقام على كفر ، لأن الله لا يقبل من مشرك عملا ما أقام على شركه وضلاله ، فأما إن تاب من شركه وكفره وأصلح ، فان الله كما وصف به نفسه غفور رحيم[١] .

الثالث : أن يحمل عدم قبول التوبة على الموت على الكفر ، وهذا القول رجحه الشوكانى فقال : والأولى : أن يحمل عدم قبول التوبة فى هذه الآيه على من مات كافراً غير تائب ، فكأنه عبر عن الموت على الكفر بعدم قبول التوبة ، وتكون الآية المذكورة بعد هذه الآية وهى قوله : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ﴾ فى حكم البيان لها[٢] .

الرابع : أن عدم قبول توبتهم كناية عن عدم توفيقهم للتوبة ، فهم لا يتوبون ، ونظير الآية على هذا القول : قوله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ أى لا شفاعة لهم أصلا حتى تنفعهم .

ومن هذا القبيل قول الشاعر :

لا تفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجحر

فهو يصف فلاة بأنها ليس فيها أرانب ولاضباب حتى تفزع أهوالها الأرنب أو ينجحر فيها الضب ، أى يدخل الجحر أو يتخذه .

ينقل هذا القول الألوسى وقال : وقيل إن هذا من قبيل :

* ولا ترى الضب ينجحر *

أى لا توبة لهم حتى تقبل ، لأنهم لم يوفقوا لها فهو من قبيل الكناية[٣] .

---

(١) تفسير ابن جرير ٣/٣٤٤ - ٣٤٥

(٢) فتح القدير ١/٥٢٩ (٣) روح المعانى للألوسى ٣/٢١٨

سورة آل عمران (٦) :

ما أصاب المسلمين يوم أحد من الغم لكى لا يحزنوا

قال الله تعالى : ﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين * إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون[1] ﴾ .

معنى الآيتين بإيجاز : كف الله تعالى فى معونته عن المسلمين يوم أحد فغلبهم المشركون — لما خالفوا أمر رسول الله ﷺ — وذلك ليمتحن صبر المسلمين على المصائب وثباتهم عندها ، وقد عفا الله عن المسلمين ، حيث ندموا على ما فرط منهم من عصيان رسول الله ﷺ والله ذو تفضل عليهم بالعفو عنهم وقبول توبتهم ، أو: هو متفضل عليهم فى جميع الأحوال سواء أديل لهم أو أديل عليهم ، لأن الابتلاء رحمة كما أن النصر رحمة .

وذلك حين فرق بعضهم وأبعدوا فى الأرض لا يلتفتون إنهزاما وخوفا من عدوهم ، والرسول ﷺ يدعوهم — فى الجماعة الأخرى — والتى تثبت ولم تفر يقول لهم : إلىّ عباد الله . فجازاهم الله غما بسبب غم أذاقوه رسول الله ﷺ بعصيانهم أمره ، أو : غما مضاعفا ، غما بعد غم ، وغما متصلا بغم من الاغتمام بما أرجف به من قتل رسول الله ، والجرح والقتل وظفر المشركين ، وفوت الغنيمة والنصر ، لكى لا يحزنوا على ما فاتهم من المنافع ، ولا ما أصابهم من المضار[2]

(١) آل عمران ١٥٢ ، ١٥٣ (٢) تفسير النسفى ١٨٨/١

وهنا عند قوله « فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم »

يسبق إلى الذهن سؤال هو : إن المجازاة بالغم سبب للحزن لا لعدمه فكان المناسب أن يقول : « لكى تحزنوا : لا لكيلا تحزنوا » ؟

والجواب عن هذا بواحد مما يأتى

الأول : أن المعنى . فأثابكم غما بغم لكى تتمرنوا على تجرع الغموم فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ، ولا على مصيب من المضار ، لأن من اعتاد المكاره لا تؤثر فيه .

الثانى : أن « لا » زائدة ، والمعنى : لكى تحزنوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة ، وعلى ما أصابكم من الجراح والهزيمة عقوبة لكم .

وذلك كقوله تعالى « ما منعك أن لا تسجد » أى أن تسجد وقوله « لئلا يعلم أهل الكتاب » أى ليعلم .

وضعف هذا الوجه الألوسى فقال : لا يخفى أن تأكيد « لا » وتكريرها يبعد القول بزيادتها . (١)

الثالث : أن قوله « لكيلا تحزنوا » متعلق بقوله « ولقد عفا عنكم » والمعنى : أنه تعالى عفا عنكم لتزيل حلاوة عفوه عنكم مرارة وآلام القتل والجراح ، وفوت الغنيمة والظفر ، والجزع مما أشاعه المشركون من قتلهم النبى ﷺ ، ومعلوم أن عفو الله تعالى يذهب كل حزن .

---

(١) روح المعانى ٣/٩٢

سورة الأحزاب :

ما أحله الله لنبيه من النساء ، وما لم يحله له

قال الله تعالى ﴿ يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ... » الآية

وقال تعالى في الآية التالية لها « ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ... » الآية

وقال تعالى في الآية التي بعدها « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا » (١)

قيل : إن الآية الثالثة نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ لما خيّرهم الرسول ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، فكان جزاؤهم أن قصر الله تعالى نبيه عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهم أو يستبدل بهن أزواجا غيرهم ولو أعجبه حسنهم إلا الإماء والسراري فلا حرج عليه فيهن .

ففهم البعض أن بينها وبين الآية الأولى « إنا أحللنا لك أزواجك »

---

(١) الأحزاب ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢

تعارضا ، فالأولى تحل له أن يتزوج نساء غير اللاتى عنده ، وهذه تحرم عليه ذلك .

وفهم آخرون أن بينها وبين الآية الثانية « ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء » تعارضا حيث تفيد الثانية أن للرسول ﷺ أن يقبل من يشاء من الواهبات أنفسهن له ، وأن يرد من يشاء ، وهذه الثالثة تحرم عليه غير من عنده من النساء .

وقد ذكر العلماء ما يفيد التوفيق بين الآيات الثلاث .

وذلك بالقول بأن الاية الثالثة « لا يحل لك النساء من بعد » محكمة والمعنى : لا يحل لك النساء من بعد الأصناف التى سماها الله أى من بعد النساء اللاتى أحلهن الله لك فى قوله « إنا أحللنا لك أزواجك »

فتكون آية ﴿ لا يحل لك النساء ﴾ محرمة ما لم يدخل فى آية ﴿ إنا أحللنا لك أزواجك ﴾ كالكتابيات والمشركات ، وبنات العم والعمات وبنات الخال والخالات اللاتى لم يهاجرن — على القول بذلك .

وعلى القول بأن الآية الثالثة منسوخة ، وأن الله تعالى رفع عن نبيه الحرج فى ذلك وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج لتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن ، فلا إشكال ويتأيد القول بالنسخ بما روى الترمذى والنسائى عن عائشة « ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء » (١)

---

(١) فتح البارى ٥٢٦/٨

وذكر ابن كثير أن ابن أبي حاتم روى عن أم سلمة أنها قالت : لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم .

ثم يضيف ابن كثير قوله الله تعالى ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ الآية فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآيتي عدة الوفاة في البقرة الأولى ناسخة للتي بعدها [١].

وقيل : إن الناسخ لها ، الآية الأولى ﴿إنا أحللنا لك أزواجك﴾

حكى هذا القول أيضا أبو السعود قال : واختلف في أن الآية ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ محكمة أو منسوخة ، قيل بقوله تعالى ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء﴾

وقيل بقوله تعالى ﴿إنا أحللنا لك﴾ وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف ، وقيل بالسنة .

وعن عائشة رضي الله عنها : ما مات رسول الله حتى أحل له النساء [٢].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٠٢ (٢) تفسير أبو السعود ٧/١١١

حرمة الجمع بين الأختين

قال الله تعالى ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم ﴾ ... إلى أن يقول ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف إن الله كان غفورا رحيما ﴾[1] فقوله « وأن تجمعوا » فى محل رفع عطفا على المحرمات السابقة أى وحرم عليكم الجمع بين الأختين .

وحرمة الجمع بين الأختين تتناول الجمع بينهما بالنكاح والوطء بملك اليمين ، بمقتضى عموم الآية ، فإن لفظ « الأختين » مثنى محلى بأل والمحلى بأل من صيغ العموم ، وقيل إن الآية خاصة بالجمع فى النكاح لا فى ملك اليمين ، وحرمة الجمع بينهما فى الوطء بملك اليمين بالقياس على النكاح ، لاتحادهما فى مدار التحريم وهو الإفضاء إلى القطيعة بين الأختين .

وقد دل عموم قول الله تعالى ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾[2] على جواز جمع الأختين بالوطء بالملك ، فإن « ما » فى « ماملكت أيمانهم » إسم موصول ، وهو من صيغ العموم .

والجـــواب

أن الصحيح حرمة الجمع بين الأختين بالوطء بملك اليمين سواء على القول بقياس ذلك على حرمة الجمع بين الأختين فى النكاح فان هذا

---

(١) النساء ٢٣

(٢) المؤمنون ٥،٦ ، والمعارج ٢٩ ، ٣٠

القياس خصص عموم آية الإباحة « أو ما ملكت أيمانهم » بجعلها فى غير الأختين ، والقياس مما يخصص به العام .

وعلى القول بعموم آية ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ للجمع بينهما بالنكاح والوطء بملك اليمين ، فان عموم هذه الآية يخصص عموم آية « أو ما ملكت أيمانهم » .

فإن المذهب الصحيح فى العام المسوق للمدح أو الذم أنه يبقى على عمومه إن لم يعارضه عام آخر مثل قوله تعالى ﴿ إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم ﴾ [1] ولا يبقى على عمومه إن عارضه عام آخر جمعا بينهما مثل قوله تعالى ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ فإنه — كما ذكر السيوطى — سيق للمدح وظاهره يعم الأختين بملك اليمين جمعا ، وعارضه فى ذلك ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ فانه شامل لجمعهما بملك اليمين ، ولم يسق للمدح فحمل الأول على غير ذلك ، بأن لم يرد تناوله له [2]

هذا هو مذهب كافة العلماء : أما الجمع بينهما فى الملك فيجوز بإجماع . قال القرطبى : واختلفوا فى الأختين بملك اليمين ، فذهب كافة العلماء إلى أنه لا يجوز الجمع بينهما بالملك فى الوطء ، وإن كان يجوز الجمع بينهما فى الملك باجماع ، وكذلك المرأة وابنتها صفقة واحدة ، واختلفوا فى عقد النكاح على أخت الجارية التى وطئها ، فقال الأوزاعى إذا وطئ جارية له بملك اليمين لم يجز له أن يتزوج أختها ، وقال الشافعى

---

(١) الانفطار ١٣ ، ١٤ (٢) الاتقان فى علوم القرآن ٢/٢٩

ملك اليمين لا يمنع نكاح الأخت ، قال أبو عمر : من جعل عقدة النكاح كالشراء أجازه ومن جعله كالوطء لم يجزه .

وشذ أهل الظاهر فقالوا : يجوز الجمع بين الأختين بملك اليمين فى الوطء كما يجوز الجمع بينهما فى الملك واحتجوا بما روى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه فى الأختين من ملك اليمين « حرمتهما آية وأحلتهما آية » ذكره عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن قبيصة بن ذؤيب أن عثمان بن عفان سئل عن الأختين مما ملكت اليمين فقال لا آمرك ولا أنهاك أحلتهما آية وحرمتهما آية ، فخرج السائل فلقى رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال معمر : أحسبه قال على - قال وما سألت عنه عثمان ؟ فأخبره بما سأله ، وبما أفتاه ، فقال له : لكنى أنهاك ، ولو كان لى عليك سبيل ثم فعلت لجعلتك نكالا .

ولم يلتفت أحد من أئمة الفتوى إلى هذا القول ، لأنهم فهموا من تأويل كتاب الله خلافه ، ولا يجوز عليهم تحريف التأويل ، وممن قال ذلك من الصحابة عمر وعلى وابن مسعود ، وابن عباس وعمار وابن عمر وعائشة وابن الزبير - رضى الله عنهم - وهؤلاء أهل العلم بكتاب الله فمن خالفهم فهو متعسف فى التأويل [1]

---

(١) الجامع لأحكام القرطبي ٥/١١٦ ، ١١٧

سورة النساء (٢)

الحسنة والسيئة من عند الله

قال تعالى ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ .

ظاهر قوله فى هذه الآية ﴿ قل كل من عند الله ﴾ التعارض مع هذه الآية التالية لها وهى قوله تعالى ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ [1] والحقيقة أنه لا تعارض بينهما وذلك يتضح مما يأتى

١ — الحسنة : هى الخصب ، والمطر ، وسعة الأرزاق ، والعافية وإجاب العلمان .

والسيئة : الجدب ، والقحط ، وقلة المطر ، والفقر ، والأمراض ، وموت الأولاد .

٢ — من نزلت فيهم الآيتان :

نزلت فى المنافقين واليهود ، وذلك أن المدينة كانت ذات خير وأرزاق ونعم عند مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما ظهر نفاق المنافقين ، وعناد اليهود أمسك الله عنهم بعض الإمساك ، فقال المنافقون واليهود مازلنا نعرف النقص فى ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هـذا الرجل وأصحابه فقال الله تعالى « وإن تصبهم » يعنى المنافقين واليهود « حسنة

---

(١) النساء ٧٨ ، ٧٩

يقولوا هذه من عند الله » أكرمنا الله بها « وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك » أي من شؤم محمد وأصحابه وشؤم ماجاء به .

وقيل : هذا إخبار عن المنافقين خاصة ، والحسنة : الظفر والغنيمة يوم بدر والسيئة : القتل والهزيمة يوم أحد ، ومعنى من عندك . من سوء تدبيرك .

٣ ــ معنى ﴿ قل كل من عند الله ﴾ .

قل لهم يامحمد : كل من الحسنة والسيئة ، والخصب والجدب ، والغنيمة والهزيمة والظفر والقتل من عند الله ، فأما الحسنة ، فبإيجاد الله وإنعام منه وتفضيل وأما السيئة فهي من الله أيضاً أوجدها ابتلاء منه سبحانه

٤ ــ معنى ﴿ فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا ﴾ .

فما شأن هؤلاء المنافقين واليهود الذين قالوا ماقالوا . لايفهمون معاني القرآن ، وأن الأشياء كلها من الله عز وجل خيرها وشرها .

٥ ــ معنى ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ماأصابك من خير ونعمة فمن فضل الله عليك يتفضل به إحسانا منه إليك وماأصابك من شدة ومكروه ومشقة وأذى فمن قبل نفسك ، وبذنب اكتسبته نفسك استوجبت ذلك به كما قال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ [1] .

---

(١) الشورى ٣٠

٦ — المخاطب بهذا :

فى المخاطب بهذا قولان : أحدهما أنه عام وتقديره : ما أصابك أيها الإنسان :

الثانى : أنه خطاب للنبى ﷺ ، والمراد به غيره من الأمة والنبى ﷺ منه برىء ،لأن الله عز وجل قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر، وهو معصوم حتى يموت[1] .

والخلاصة : أن كلا من الحسنة والسيئة من عند الله إيجاداً وخلقا الحسنة تفضلا منه سبحانه ، والسيئة ابتلاء ومجازاة ، ونسبتها إلى العبد باعتبار أن ذنوبه ومعاصيه سبب حصولها له ،وإصابته بها فلا تعارض.

---

(١) تفسير الخازن ١/٦٥١ — ٥٦٢

قاتل المؤمن متعمداً ، وهل له توبة ؟

قال الله تعالى ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما »[١] .

تخبر الآية الكريمة أن قاتل المؤمن متعمداً يجازى بالخلود فى جهنم وأن الله يغضب عليه ويلعنه .

بينما تدل آيات متعددة فى القرآن الكريم على أن التائب من أى ذنب يغفر الله له ، ولا يحرم من مغفرة الله تعالى إلا من مات على الشرك. من هذه الآيات قوله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »[٢]

وقوله تعالى ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا * إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴾[٣]

وقوله تعالى ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾[٤]

وقوله تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾[٥]

---

(١) النساء ٩٣ (٢) النساء ٤٨
(٣) الفرقان ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ (٤) طه ٨٢
(٥) الزمر ٥٢

فكيف توفق بين آية النساء ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا ... ﴾ وهذه الآيات ؟

الجواب

إن التوفيق بينها بواحد من هذه الوجوه :

الأول : أن آية النساء فى مستحل قتل المؤمن ، لأن مستحل ذلك كافر أو : قصد قتله لإيمانه ، وذلك كفر أيضا .

واستدل قائل ذلك بما ورد فى سبب نزول الآية وهو — كما ذكره البغوى :

أنها نزلت فى مقيس بن صبابة الكندى ، وكان قد أسلم هو وأخوه هشام فوجد أخاه هشاماً قتيلا فى بنى النجار ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك ، فأرسل رسول الله ﷺ معه رجلا من بنى فهر إلى بنى النجار أن رسول الله يأمركم إن علمتم قاتل هشام بن صبابة أن تدفعوه إلى مقيس فيقتص منه ، وإن لم تعلموا أن تدفعوا إليه ديته .

فأبلغهم الفهرى ذلك فقالوا سمعا وطاعة لله ولرسوله ، والله ما نعلم له قاتلا ، ولكنا نؤدى ديته ، فأعطوه مائة من الإبل ، ثم انصرفا راجعين نحو المدينة فأتى الشيطان مقيسا ، فوسوس إليه فقال : تقبل دية أخيك فتكون عليك مسبة ، أقتل الذى معك ، فتكون نفس مكان نفس ، وفضل الدية ، فتفغفل الفهرى ، فرماه بصخرة فقتله ، ثم ركب بعيرا ، وساق بقيتها راجعا إلى مكة كافرا فنزل فيه .

« ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها » بكفره

وارتداده وهو الذى استثناه النبى ﷺ يوم فتح مكة ممن أمنه فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة.[1]

وعلى هذا فالآية مختصة بالقاتل المستحل للقتل الخارج عن الاسلام الذى هو كقيس بن صبابة ، فإنه مخلد فى النار ، أما أى مؤمن يرتكب ذنبا غير مستحل له ، فانه لا يخلد فى النار

الثانى :

أن الآية للتشديد والتخويف والتغليظ فى الزجر عن قتل المؤمن

ولذلك نظير فى قوله تعالى ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾[2] على القول بأن معنى « ومن كفر » ومن لم يحج .

وما روى عن ابن عباس من عدم قبول توبة قاتل المؤمن عمدا — أراد به التشديد ، فقد روى عنه أيضا قبول توبته .

قال الخطيب : وما روى عن ابن عباس أنه قال : لا تقبل توبة قاتل المؤمن عمـــدا ، كما رواه الشيخان ، أراد به التشديد ، كما قاله البيضاوى إذ روى عنه خلافه رواه البيهقى فى سننه .

وقال القرطبى : وذهب جماعة من العلماء منهم عبدالله بن عمر وهو أيضا مروى عن زيد وابن عباس — إلى أن له توبة : روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا أبو مالك الأشجعى عن سعد بن عبيدة قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : ألمن قتل مؤمنا متعمدا توبة ؟ قال : لا ،

---

(١) تفسير البغوى ٥٧٦/١ (٢) آل عمران ٩٧

إلا النار ، قال : فلماذا ذهب قال له جلساؤه أهكذا كنت تفتينا ؟ كنت تفتينا أن لمن قتل توبة مقبولة ، قال : إني لأحسبه رجلا مغضبا يريد أن يقتل مؤمنا ، قال : فبعثوا فى أثره فوجدوه كذلك .(١)

كما روى عن سفيان بن عيينة أنه قال : إن لم يقتل يقال له : لك لا توبة .

وإن قتل ثم جاء يقال : لك توبة ، ويروى قتله عن ابن عباس رضى الله عنهما .(٢)

الثالث :

أن جزاء القاتل عمدا جهنم إن لم يتب وأصر على الذنب حتى مات

قال القرطبى : إن الجمع بين آية الفرقان وهذه الآية ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا ﴾ ممكن ، فلا نسخ ولا تعارض ، وذلك أن يحمل مطلق آية النساء على مقيد آية الفرقان ، فيكون معناه : فجزاؤه جهنم إلا من تاب لا سيما ، وقد اتحد الموجب وهو القتل ، والموجب وهو التوعد بالعقاب .

وأما الأخبار فكثيرة كحديث عبادة بن الصامت الذى قال فيه « تبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب شيئا من ذلك فعوقب به ، فهو كفارة له ، ومن أصاب

---

(١) تفسير القرطبى ٥/٢٣٢

(٢) تفسير البغوى ١/٥٧٧

من ذلك شيئا فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عذبه » رواه الأئمة أخرجه الصحيحان (واللفظ لمسلم) (١)

وكحديث أبي هريرة الثابت في الصحيحين عن النبي ﷺ في الذي قتل مائة نفس ثم سأل عالما هل لي من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه فهاجر إليه فمات في الطريق فقبضته ملائكة الرحمة ، ثم يقول ابن كثير .

وإذا كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى ، لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت عليهم وبعث نبينا بالحنيفية السمحة (٢)

ولأن الكفر أعظم من القتل ، وتوبة الكافر مقبولة بدليل قوله تعالى :

﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ وإذا كانت التوبة من الكفر مقبولة فلأن تقبل من القاتل أولى .

والمراد بالخلود في جهنم على هذا والذي قبله المكث الطويل .

إذ الخلود في حق الكفار بمعنى الدوام الذي لا ينقطع ، وبالنسبة للمؤمنين المكث الطويل ، فالله تعالى يعذب عصاة المؤمنين في النار إلى حيث يشاء ثم يخرجهم منها ، فقاتل المؤمن عمدا يعذبه الله في النار ثم يخرجه منها برحمته وكرمه فإنه قد ثبت في أحاديث الشفاعة الصحيحة إخراج جميع الموحدين من النار وهذا الوجه الأخير هو الأرجح .

---

(١) تفسير القرطبي ٥/٣٢٤ (٢) تفسير ابن كثير ١/٥٢٧

سورة المائدة (١) :

شهادة الكفار على الوصية فى السفر

قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم فى الأرض [١] فأصابتكم مصيبة الموت »

تدل هذه الآية على قبول شهادة الكفار على الوصية — عند حضور الموت فى السفر .

وقد أفادت آيات أخرى عدم قبول شهادة الكفار منها قوله تعالى ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ﴾[٢] والكفار ليسوا بمرضيين .

وقوله تعالى ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴾[٣] والكفار ليسوا عدولا .

والتوفيق بين الآيات بواحد بما يأتى

الأول : أن الكاف والميم فى قوله « منكم » ضمير للمسلمين و « آخران من غيركم » لأهل الذمة ، فيكون فى الآية دليل على جواز شهادة أهل الذمة على المسلمين فى السفر فى خصوص الوصايا عند عدم وجود أحد من المؤمنين ، وتكون الآية محكمة لم تنسخ ، وهذا مذهب الجمهور .

---

(١) المائدة ١٠٦ (٢) البقرة ٢٨٢

(٣) الطلاق ٢

وأما قوله تعالى ﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾ وقوله ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴾ فهما عامان فى الأشخاص والأزمان والأحوال .

وهذه الآية خاصة بحالة الضرب فى الأرض ، وبالوصية وبحالة عدم الشهود المسلمين ، ولا تعارض بين عام وخاص .

الثانى : أن آية المائدة منسوخة ، وأصحاب هذا القول احتجوا بآيتى البقرة والطلاق « ممن ترضون من الشهداء » و « وأشهدوا ذوى عدل منكم »

والكفار ليسوا بمرضيين ولا عدول ، وقالوا : إن آية الدين وفيها « ممن ترضون من الشهداء » من آخر ما نزل ، فهو ناسخ لذلك .

وضعف هذا الوجه بعدم وجود دليل صحيح يدل على النسخ . ولم يأت القول بالنسخ عن أحد ممن شهد التنزيل .

الثالث : أن الآية لا نسخ فيها ، ومعنى قوله « منكم » من عشيرتكم وقرابتكم ، لأنهم أحفظ وأضبط وأبعد عن النسيان ، ومعنى قوله « أو آخران من غيركم » من غير القرابة والعشيرة »[1]

وهذا المذهب أيضا فيه ضعف ، وأرجح الثلاثة المذهب الأول مذهب الجمهور ، وبه يزول التعارض .

---

(١) تفسير القرطبى ٦/٣٤٩ ، ٣٥٠ وتفسير فتح القدير ٢/٨٦

سورة المائدة (٢) :

سؤال الله تعالى الرسل يوم القيامة ، عما أجابهم به أقوامهم

قال الله تعالى ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾[١] .

فهذه الآية تفيد أن الرسل عندما يسألهم الله عز وجل يوم القيامة عما أجابهم به أممهم لا يشهدون على أممهم بينما جاء فى آيات أخرى مما يدل على أنهم يشهدون على أممهم منها قوله تعالى ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾[٢] .

وقوله تعالى ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾[٣] .

والجواب من وجوه

الأول : أن الرسل يقولون ﴿لا علم لنا﴾ بمعنى لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا ، أى لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شىء فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا من أجابنا ، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا ببباطنه ، وأنت العليم بكل شىء المطلع على كل شىء ، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم فإنك أنت علام الغيوب . وهذا القول رواه ابن جرير واختاره ، وحسنه ابن كثير وهو من باب التأدب مع الله عز وجل[٤] .

---

(١) المائدة ١٠٩ (٢) النساء ٤١

(٣) النحل ٨٩ (٤) تفسير ابن كثير ٢/١١٤

الثانى : أن الرسل قالوا : لاعلم لنا لما اعتراهم من شدة هول يوم القيامة ثم زال ذلك عنهم ، فشهدوا على أممهم .

الثالث : أن معنى قوله ﴿ ماذا أجبتم ﴾ ماذا عملوا بعدكم ، وما أحدثوا بعدكم ؟ قالوا : لاعلم لنا ، وهذا القول ضعيف، وأقوى الأقوال الثلاثة أولها .

الفصل الثالث

الاختلاف بين الآيات

فى أمور ترجع إلى اللغة

بأن يكون الاختلاف بين الآيات فى الإفراد والتثنية والجمع فيذكر شىء فى آية مفرداً ، ثم يذكر فى آية أو آيات أخرى مثنى أو جمعاً .

أو يكون الاختلاف بين الآيات فى التذكير والتأنيث ، فيرد شىء فى آية بصيغة التذكير ، ويرد فى آية أخرى بصيغة التأنيث أو يرجع الاختلاف بين الآيات للتعريف والتنكير ، فبينما يذكر شىء ما فى آية معرفا يذكر فى أخرى منكراً .

وبالجمع بين الآيات المختلفة فى هذه الأمور ، والتأمل فى المقصود منها يتبين أنه لا منافاة بين هذه الآيات .

وسأكتفى بإيراد أمثلة قليلة لهذا الضرب من الاختلاف مع التوفيق بين الآيات .

الاختلاف فى الإفراد والتثنية والجمع

١ ــ قال الله تعالى « ولله المشرق والمغرب »[1] .

فقد أفرد هذه الآية المشرق والمغرب .

بينما ثناها فى سورة الرحمن فى قوله تعالى « رب المشرقين ورب المغربين[2] » .

---

(١) البقرة ١١٥ (٢) الرحمن ١٧

بينما جاء فى سورة المعارج بلفظ الجمع قال تعالى « فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون »[١] .

وجاء فى سورة الصافات بصيغة الجمع فى المشارق قال تعالى « رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق »[٢] .

والجواب :

بأن نقول أولا : المشرق هو موضع الشروق ،والمغرب هو موضع الغروب وللشمس مشرق كل يوم يختلف عن مشرقها فى اليوم الآخر على مدار السنة وكذلك مغربها .

وللقمر مشرق فى كل يوم يختلف عن مشرقه فى اليوم الآخر على مدار الشهر وكذلك مغربه، ومشرق الصيف يختلف عن مشرق الشتاء ، ومغربهما أيضا مختلفان .

وعلى هذا فآية الإفراد « ولله المشرق والمغرب » المراد فيها جنس المشرق ، والمغرب ، فهو صادق بكل مشرق من مشارق الشمس المختلفة على مدار السنة ، وكل مغرب من مغاربها كذلك

وآية التثنية « رب المشرقين ورب المغربين » تعنى مشرق الصيف ومشرق الشتاء ، ومغربهما .

أو : مشرق الشمس والقمر ومغربهما .

والجمع فى « فلا أقسم برب المشارق والمغارب » مقصود به مشارق الشمس ومغاربها المختلفة على مدار السنة — كما تقدم .

---

(١) المعارج ٤٠ (٢) الصافات ٥

٢ ـ إفراد النهر وجمعه

ذكرت بعض آيات القرآن الكريم أن الذين اتقوا ربهم فى الدنيا يكونون فى الآخرة فى جنات ونهر قال تعالى « إن المتقين فى جنات ونهر[١] » والنهر : مفرد سواء على قراءة فتح الهاء أو إسكانها .

بينما ذكرت آيات أخرى أن فى الجنة التى وعدها المتقون أنهارا قال تعالى « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ... »[٢] .

وقال تعالى « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى »[٣] .

والجوب : واضح وهو أن المفرد فى سورة القمر أريد به الجنس فهو يشمل ويتناول كل أنهار الجنة .

٣ ـ أفراد الغرفة وجمعها :

أخبر تعالى عن عباده الذين أطاعوه فى الدنيا ، ففعلوا ما به أمر ، واجتنبوا ما عنه نهى بأنهم فى الآخرة يجزون الغرفة قال تعالى « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما »[٤] .

والغرفة الدرجة الرفيعة ، وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها .

بينما ذكرت آية أخرى أن الذين اتقوا ربهم فى الدنيا لهم فى الآخرة

---

(١) القمر ٥٤ (٢) آل عمران ١٥

(٣) محمد ١٥ (٤) الفرقان ٧٥

غرف متعددة وهى قوله تعالى « لـكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية »[١] فى الأية الأولى ـ هنا ـ بالإفراد ، وفى الثانية بالجمع .

والجواب :

ظاهر وهو أن المفرد مراد به الجنس فهو بمعنى الجمع ، فالغرفة مراد بها الغرف أو : أن الغرفة فى الآية الأولى بمعنى الجنة ، والغرف فى الاية الثانية درجات فى الجنة بعضها فوق بعض .

الاختلاف فى التذكير والتأنيث

قال الله تعالى «وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيـــل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تـكذبون »[٢] ففى هذه الآية لفظ الموصول (الذى) مذكر .

وفى قوله تعالى « فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تـكذبون »[٣] لفظ الموصول (التى) مؤنث :

فتذكير اللفظ فى آية السجدة (الأولى) على وصف العذاب ، وتأنيثه فى آية سبأ (الثانية) على وصف النار ، فتحصل لنا من الآيتين أن الـكفار كذبوا بالنار ، وبالعذاب فيها .

ويضيف بدر الدين الزركشى أن فى ذلك أربعة أوجه :

---

(١) الزمر ٢٠

(٢) السجدة ٢٠ (٣) سبأ ٤٢

أحدها : أنه وصف العذاب فى السجدة لوقوع (النار) موقع الضمير الذى لا يوصف وذلك لتقدم إضمارها (فى الآية) فحق الكلام . وقيل لهم ذوقوا عذابها ، فلما وضعها موضع المضمر الذى لا يقبل الوصف عدل إلى وصف العذاب وأما فى سبأ فوصفها لعدم المانع من وصفها .

والثانى : أن الذى فى السجدة وصف النار أيضا ، وذكر حملا على معنى الجحيم والحريق .

والثالث : أن الذى فى السجدة فى حق من يقر بالنار ويجحد العذاب وفى سبأ فى حق من يجحد أصل النار .

والرابع أنه إنما وصف العذاب فى السجدة ، لأنه لما تقدم ذكر النار مضمراً ومظهراً عدل إلى وصف العذاب ليكون تلوينا للخطاب فيكون أنشط للسامع بمنزلة العدول من الغيبة إلى الخطاب [1] .

وقد يخاطب الأنثى الواحدة بخطاب جماعة الذكور كما جاء فى قوله تعالى ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ [2] .

وعلى القول الصحيح بأنه لم يكن معه سوى زوجته ، وخاطبها بخطاب جماعة الذكور تكريماً لها ، ومن ذلك قول الشاعر :

فإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٢/٦٣ ، ٦٤

(٢) القصص ٢٩

وعلى القول الضعيف بأنه كان مع زوجة موسى عليه السلام خادم، أو ولدان له فيكون من باب تغليب الذكور على الإناث ، وهذا يرد كثيرا ومنه قوله تعالى فى شأن مريم ابنة عمـــران ﴿ وكانت من القانتين ﴾[1] ولم يقل من القانتات تغليباً للذكور المتصفين بالقنوت على الإناث المتصفات به .

الاختلاف بين الآيات فى التعريف والتنكير

من هذا القبيل تعريف النار فى قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[2] .

وتنكيرها فى قوله تعالى فى سورة التحريم ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ﴾[3] .

وقد أجيب عن ذلك بجوابين

الأول : أن التنكير فى آية التحريم ، لأنها نزلت بمكة قبل آية البقرة فلم تكن النار التى وقودها الناس والحجارة معروفة فنكرها ، ثم نزلت آية البقرة بالمدينة مشارا بها إلى ماعرفوه أولا[4] .

الثانى : وهو للكرخى ، وقد نقله عنه الجمل : عـرف النار فى البقرة ، ونكرها فى التحريم ، لأن الخطاب فى هذه (البقرة) مع المنافقين وهم فى أسفل النار المحيطة بهم فعرفت بلام الاستغراق، أو العهد الذهنى ،

---

(١) التحريم ١٢ (٢) البقرة ٢٤

(٣) التحريم ٦٠ (٤) البرهان للزركشى ٢/٦٤

وفي تلك (التحريم) مع المؤمنين ، والذى يعذب من عصاتهم بالنار يكون فى جزء من أهلاها فناسب تنكيرها لتقليلها[١] .

ومن هذا القبيل أيضاً :

تعريف البلد فى قوله تعالى فى سورة إبراهيم ﴿ وإذ قال إبرهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾[٢] .

وتنكيرها فى قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا ﴾[٣] .

والجواب :

إن الدعوة التى دعا بها إبراهيم عليه السلام — وذكرتها آية البقرة — كانت والمكان قفر لا زرع فيه ولا ماء ولا بناء أى قبل أن يكون بلدا فطلب من الله تعالى أن يجعل المكان بلدا آمنا .

والدعوة التى دعا بها عليه السلام — وذكرتها آية إبراهيم ، كانت بعد أن صار بلدا فطلب من الله تعالى أن يجعله آمنا.

قال الكرخى : ونكر البلد هنا (فى البقرة) وعرفه فى إبراهيم ، لأن الدعوة هنا كانت قبل جعل المكان بلدا ، فطلب من الله تعالى أن يجعل ويحصل بلدا آمنا ، ونم (فى إبراهيم) كانت بعد جعله بلدا[٤]

وأضاف الزركشى احتمالا آخر فى الدعوة التى فى سورة إبراهيم بأن يكون دعا — والبلد آمن — طالبا ثبات الأمن ودوامه فقال :

---

(١) الفتوحات الإلهية ٢٩/١ (٢) إبراهيم ٣٥

(٣) البقرة ١٢٦ (٤) الفتوحات الالهية ١٠٥/١

لأنه فى الدعوة الأولى (فى سورة البقرة) كان مكانا فطلب منه أن يجعله بلدا آمنا .

وفى الدعوة الثانية (فى سورة إبراهيم) كان بلدا غير آمن فعرفه وطلب له الأمن .

أو كان بلدا آمنا ، وطلب ثبات الأمن ودوامه .

وكون سورة البقرة مدنية ، وسورة إبراهيم مكية لا ينافى هذا ، لأن الواقع من إبراهيم — عليه السلام — كونه على الترتيب المذكور ، والأخبار عنه فى القرآن على غير ذلك الترتيب ، أو : لأن المكى منه ما نزل قبل الهجرة فيكون المدنى متأخراً عنها ، ومنه ما نزل بعد فتح مكة فيكون متأخرا عن المدنى ، فلم قلتم : إن سورة إبراهيم من المكى الذى نزل قبل الهجرة .[1]

---

(١) البرهان ٢/٦٤ ، ٦٥

الفصل الرابع

التعارض بين الآية والحديث

تحدثنا فيما مضى عن دفع ما يتوهم من تعارض بين الآيات القرآنية فإن القرآن الكريم كلام أحكم الحاكمين ، وأصدق القائلين ولا يمكن أن يقع التعارض فى كلامه .

ونظراً لأن السنة النبوية الشريفة من عند الله أيضاً فإنه لا يقع بينها وبين القرآن تعارض ، وهى المبينة له ، ولا تعارض بين المبيِّن والمبيَّن وإذا وجد ما ظاهره التعارض بين حديث وآية فإنه بالتأمل فيهما وإعمال الفكر يتضح التوافق التام بينهما ، وأن لا يتعارض على الإطلاق وسأكتفى فى هذا المجال بذكر مثالين يدلان على أنه لا تعارض بين آية وحديث .

١ — حفظ الرسول من الناس

أخبر الله تعالى أنه حفظ نبيه من الناس فقال : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين[1] ﴾ :

مع أنه قد صح أنه صلى الله عليه وسلم شج وجهه ، وكسرت رباعيته يوم أحد وأوذى بضروب الأذى ، فكيف يجمع بين هذا وهذه الآية .

---

(١) المائدة ٦٧

والجواب بواحد من اثنين :

الأول : أن حفظ الله لنبيه ﷺ كان من خصوص القتل فلا ينافى أن يقع له عليه الصلاة والسلام غير القتل ، من الأذى فى جسمه؛ يدل لذلك ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها : كانت تحدث أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهى إلى جنبه قالت : فقلت : ما شأنك يارسول الله قال : ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة .

قالت : فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال : من هذا ؟ فقال : أنا سعد بن مالك . فقال « ما جاء بك » ؟ قال : جئت لأحرسك يا رسول الله ، قالت : فسمعت غطيط[1] رسول الله ﷺ فى نومه (أخرجاه فى الصحيحين) .

وروى ابن أبى حاتم عن عبد الله بن شقيق عن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ قالت : فأخرج النبى صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة وقال « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنا الله عز وجل[2] » . وما روى عن جابر أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نجد فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل معه ، فأدركتهم القائلة فى واد كثير العضاة[3] ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلق بها سيفه ، ونمنا معه نومة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا ، وإذا عنده أعرابى ،

---

(١) الغطيط : صوت النائم المرتفع (٢) تفسير ابن كثير ٧٨/٢

(٣) العضاه : شجر عظيم له شوك

فقال : إن هذا اخترط[١] علىّ سيفى وأنا نائم ، فاستيقظت ، وهو فى يده صلتا[٢] فقال : من يمنعك منى ؟ فقلت : الله (ثلاثا) ولم يعاقبه وحبس .

وروى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل منزلا اختار له أصحابه شجرة ظليلة فيقيل تحتها ، فأتاه أعرابى فاخترط سيفه ثم قال : من يمنعك منى فقال « الله عز وجل » فرعدت يد الأعرابى وسقط السيف منه ، وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه فأنزل الله عز وجل ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾.

ومعلوم : أنه لما وضع له اليهود السم فى ذراع شاة بخيبر أعلمه الله به ، وحماه منه .

الثانى : أن ما أصاب الرسول صلى الله عليه وسلم فى جسمه يوم أحد كان قبل أن تنزل آية المائدة « والله يعصمك من الناس » لأن غزوة أحد كانت سنة ثلاث من الهجرة ، وسورة المائدة من أواخر ما نزل بالمدينة .

فكان صلى الله عليه وسلم قبل أن تنزل عليه هذه الآية عرضة لأن يصاب بأى أذى فى جسمه ، ومن ذلك ما أصابه يوم أحد ، فما نزلت الآية منعه الله تعالى من كل أذى .

والوجه الأول أقوى ، لكثرة ما يؤيده .

---

(١) اخترط سيفه . أستله

(٢) صلتا : مجردا من غمده

٢ — دخول الجنة برحمة الله

دلت أكثر من آية فى القرآن الكريم على أن دخول الجنة بالعمل الصالح الذى يقدمه المؤمن فى الدنيا من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون[1] ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون[2] ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية[3] ﴾

بينما دل الحديث الشريف على أن العمل الصالح لا يدخل صاحبه الجنة ، وإنما دخول الجنة برحمة الله وفضله .

فقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحدا منكم لن يدخله عمله الجنة » قالوا ولا أنت يا رسول الله . قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » .

والجـــواب

أن النجاة من النار بعفو الله ، ودخول الجنة برحمته ، وانقسام المنازل وتفاوت الدرجات بالأعمال .

قال ابن كثير فى تفسير قوله : ﴿ وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم ، فإنه لا يدخل أحدا عمله الجنة ، ولكن برحمة الله وفضله ، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات . وساق الحديث الذى

---

(١) الزخرف ٧٢ (٢) النحل ٣٢ (٣) الحاقة ٢٤

رواه ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل أهل النار يرى منزله من الجنة فيكون له حسرة فيقول ﴿ لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴾ وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول ﴿ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ فيكون له شكراً[1] » .

وقال بعضهم : إن الأعمال الصالحة سبب لرضا الله تعالى ، ورضا الله يستتبع شمول رحمته وفضله لمن رضي عنهم ، ودخول الجنة بفضله تعالى ورحمته .

هذا ، ونسأل الله تعالى أن يعفو عن تقصيرنا وزلاتنا ، وأن يشملنا بفضله وإحسانه ، وأن يدخلنا الجنة برحمته وإنعامه إنه سميع قريب مجيب الدعاء ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وسبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على خاتم النبيين والمرسلين المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ؟

تم بحمد الله تعالى

مكة المكرمة

في ٢٤ من ذي القعدة سنة ١٤٠١ هـ

الموافق ٢٢ من سبتمبر سنة ١٩٨١ م

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٣٤

المصـــادر

١ — جامع البيان فى تفسير القرآن	الإمام محمد بن جرير الطبرى
٢ — الكشاف	الإمام محمود عمر الزمخشرى
٣ — مفاتيح الغيب	الإمام محمد فخر الدين الرازى
٤ — الجامع لأحكام القرآن	الإمام محمد بن أحمد القرطبى
٥ — السراج المنير	الإمام محمد الخطيب الشربينى
٦ — معالم التنزيل	« الحسين بن مسعود البغوى
٧ — لباب التأويل فى معانى التنزيل	« على بن محمد الخازن
٨ — تفسير القرآن العظيم	« اسماعيل بن عمر بن كثير
٩ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم	« أبو السعود العمادى
١٠ — تفسير النسفى	« عبدالله بن أحمد النسفى
١١ — فتح القدير	« محمد بن على بن محمد الشوكانى
١٢ — الفتوحات الإلهية	« سليمان بن عمر - الجمل
١٣ — روح المعانى	« محمود الألوسى
١٤ — صفوة التفاسير	الشيخ محمد على الصابونى
١٥ — مسند الإمام أحمد	الإمام أحمد بن حنبل
٦ - صحيح البخارى	« محمد بن اسماعيل البخارى
١٧ — صحيح مسلم	« مسلم بن الحجاج
١٨ — فتح البارى بشرح صحيح البخارى	« أحمد بن على بن حجر العسقلانى
١٩ — شرح النووى على صحيح مسلم	« النووى
٢٠ — المفردات فى غريب القرآن	« الأصفهانى

٢١ — النهاية فى غريب الحديث والأثر	الإمام ابن الأثير الجزرى
٢٢ — البرهان فى علوم القرآن	« محمد بن عبد الله الزركشى
٢٣ — تأويل مشكل القرآن	« ابن قتيبة
٢٤ — الاتقان فى علوم القرآن	« جلال الدين السيوطى
٢٥ — دفع إيهام الاضطراب عن آى الكتاب	« محمد الأمين الشنقيطى
٢٦ — عصمة الأنبياء	الدكتور محمد ابو النور الحديدى

فهـــرس

	صفحة
تمهيد	٣
الفصل الأول	
الأسباب الموهمة للاختلاف	١٣
الفصل الثانى	
فى التوفيق بين الآيات	٢٢
الخاطىء غير المخطىء	٣٢
الرسول لا يطلب على تبليغ الرسالة أجراً	٣٤
نبذ يونس بالعراء غير مذموم	٣٨
أحوال الجبال يوم القيامة	٤٠
القرآن كلام الله بلغة جبريل	٤٣
القرآن محفوظ من الضياع	٤٥
التذكير ومتى يكون	٥٠
هدى الدلالة وهدى التوفيق	٥٤
نبينا لم يكن على ضلال قبل البعثة	٥٧
شهادة الكفار على أنفسهم بالكفر	٦٣
الذين حقت عليهم كلمة الله لا يؤمنون	٦٨
ما يبلغه الرسول عن ربه وحى منه تعالى	٧٠
لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى	٧٤
الانتفاع بسعى الغير	٧٩
العبد بين الضلالة والهدى	٨٣
القسم بمكة ويوم القيامة ومواقع النجوم	٨٦
رؤية الله عز وجل	٨٩
نطق الكفار فى الآخرة وعدم نطقهم	٩٥

خلق السموات والأرض فى ستة أيام	١٠٤
الله تعالى منزه عن التعب والإعياء	١٠٨
سؤال الكفار يوم القيامة توبيخ الاستعلام	١١١
سؤال إبليس عما منعه من السجود	١١٥
أمر الله تعالى عباده بالطاعة	١١٧
النسيان	١٢٠
فرعون وأصنامه	١٢٣
ورود النار	١٢٩
إخفاء الساعة وعدم تعيين وقتها	١٢٣
زوال عقدة لسان موسى عليه السلام	١٣٦
المانع للناس من الإيمان	١٣٩
حشر الكفار يوم القيامة عميا وبكما وصما	١٤١
زعم الكفار أن الأصنام تشفع لهم عند الله	١٤٥
ابن نوح ليس من أهله الموعود بنجاتهم	١٤٨
نعيم الجنة وعذاب النار لا ينقطعان	١٥٠
اختلاف الناس فى الهدى والضلالة	١٥٦
شاء الله شرك المشركين ولم يرضه لهم	١٥٩
مصاحبة الوالدين الكافرين بالمعروف لا موادتهما	١٦٢
الغفران للمسرفين على أنفسهم بالمعاصى	١٦٤
الجدال بالباطل والجدال بالحق	١٦٦
الرسول لا يدرى ما يفعل به ولا بقومه	١٦٨
طعام أهل النار	١٧١
الشيطان ليس له حجة على الناس	١٧٣
معية الله لعباده	١٧٥
الكافر يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت	١٧٧

دعوة إبراهيم بجعل مكة بلداً آمنا	١٧٩
تساؤل الناس يوم القيامة	١٨١
اختلاف الكفار فى الآخرة فى مدة لبثهم فى الدنيا	١٨٣
كل إنسان مرتهن بعمله	١٨٤
ما لا ينتفع به من الحواس والعقول فى حكم العدم	١٨٥
ورود الظن بمعنى اليقين فى القرآن وفى كلام العرب	١٨٧
القرآن لا ريب فيه	١٨٩
الأمة المحمدية أفضل الأمم	١٩٢
رسل الله منصورون وغالبون	١٩٥
الأظلمون وجزاؤهم	١٩٩
وجوب الصوم على المقيم الصحيح	٢٠٢
الأمر بقتال المشركين	٢٠٥
بين الانتقام والعفو	٢٠٨
من يكره على الإسلام ومن لا يكره	٢١٢
المدد بالملائكة يوم بدر	٢١٦
الأمانان من العذاب : وجود الرسول فى قومه واستغفارهم	٢٢٠
القرآن محكم ومتشابه	٢٢٧
خلق الله وخلق الآدميين	٢٣٠
توفى عيسى عليه السلام ورفعه	٢٣٢
إبراهيم عليه السلام لم يكن من المشركين	٢٣٦
قبول التوبة قبل حضور الموت	٢٤١
ما أصاب المسلمين يوم أحد من الغم لكى لا يحزنوا	٢٤٥
ما أحله لنبيه من النساء ، وما لم يحله له	٢٤٧
حرمة الجمع بين الأختين	٢٥٠
الحسنة والسيئة من عند الله	٢٥٣

قاتل المؤمن متعمدا ، وهل له توبة ؟ ٢٥٦
شهادة الكفار على الوصية فى السفر ٢٦١
سؤال الله تعالى الرسل يوم القيامة عما اجابهم به أقوامهم ٢٦٣

الفصل الثالث

الاختلاف بين الآيات فى أوور ترجع إلى اللغة ٢٦٥
الاختلاف فى الإفراد والتثنية والجمع ٢٦٥
افراد النهر وجمعه ٢٦٧
افراد الغرفة وجمعها ٢٦٧
الاختلاف فى التذكير والتأنيث ٢٦٨
الاختلاف فى التعريف والتنكير ٢٧٠

الفصل الرابع

التعارض بين الآية والحديث ٢٧٣
حفظ الرسول من الناس ٢٧٣
دخول الجنة برحمة الله ٢٧٦
المصادر ٢٧٨
الفهرس ٢٨٠

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٢/٢٠٧٤